ومبشراً برسول يأتي من بعدي

# اسمه احمد

and giving the good news of an Apostle who will come after me his name being Ahmad

كمال السيّد

ومبشراً برسول يأتي من بعدي

# اسـمه احـمد

كمال السيد

سيد، كمال، ١٣٣٦ -
ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد/كمال السيد.- قم: انصاريان، ١٣٨٤ = ٢٠٠٥.
١٦٠ ص.
عربى.
ISBN: 964-438-316-8
١. محمد(ص)، پيامبر اسلام، ٥٣ قبل از هجرت- ١١ق.- سرگذشتنامه.
الف. عنوان.
BP٢٢/٩/س٨٥و٨ ٢٩٧/٩٣

# اسمه احمد

المؤلف: كمال السيد
الناشر: مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر — قم
الطبعة الثانية: ١٣٨٠ - ١٤٢٢ - ٢٠٠١
الطبعة الثالثة: ١٣٨٢ - ١٤٢٤ - ٢٠٠٣
الطبعة الرابعة: ١٣٨٢ - ١٤٢٥ - ٢٠٠٤
الطبعة الخامسة: ١٣٨٤ - ١٤٢٦ - ٢٠٠٥
المطبعة: ثامن الأئمة(ع) - قم
الكمية: ٢٠٠٠ نسخة
عدد الصفحات: ١٦٠ ص.
حجم الغلاف: متوسط
رقم الإيداع الدولي(ISBN): ٩٦٤-٤٣٨-٣١٦-٨





مؤسسة انصاريان للطباعة والنشر
جمهورية ايران الإسلامية
قم - شارع الشهداء — فرع ٢٢
ص.ب ١٨٧
هاتف: ٧٧٤١٧٤٤ (٢٥١) (٩٨) فاكس: ٧٧٤٢٦٤٧
البريد الالكتروني: ansarian@noornet.net
www.ansariyan.org & www.ansariyan.net

دعني أضع كفي في كفيك علّ الجمر يبرد

دعني أطف في السدرة الخضراء في المأوى وأبعد

دعني أشهّد يا محمد

دعني أردد اسمك الحلو المجرّد

دعني أردد : يا محمد يا حبيبي يا محمد يارسول اللّٰه

في واد ضيق طويل وعلى مقربة من بئر زمزم، نشأت مكة قرية صغيرة لتصبح بعد عقود من السنين «أم القرىٰ».

ولقد ظلت مكة بعيدة عن عبث الفاتحين، قروناً مديدة تتألق مجداً بين مدن الحجاز وقراه، ففي ارضها البيت العتيق.. البيت الذي بناه ابراهيم واسماعيل.

حتى اذا اطلّ عام ٥٧٠ من الميلاد، فكر الاحباش الذين احتلوا اليمن في القرن السادس الميلادي في السيطرة على الطريق البرّي للتجارة. دعماً لموقف حلفائهم الرومان، فيما اتجه الفرس الى تحريض يهود اليمن والنصارى المعارضين، وتعزيز وجوداتهم، واستيقظ الحجاز على دوي الصراع بين الامبراطوريتين.

وهكذا وجدت مكّة نفسها في مهب الاعصار القادم من اليمن، فقد زحفت جيوش الاحباش يتقدمها فيل مدرّب من اجل تدمير بيت الله؛ بعد ان عجز «القليس»[1] من اجتذاب انظار العرب فظلّت قوافلهم تهوي في بطون الأودية في مواسم الحج.

كان عبد المطلب قد تخطى السبعين آنذاك؛ شيخ وضيء القسمات في عينيه انعكاسات من بريق النبوّات الغابرة مذ وطأت قدم ابراهيم الخليل «وادٍ غير ذي زرع».

واعتصم المكيون الذين تهيبوا ضخامة الغزو برؤوس الجبال ينظرون من بعيد الى الكعبة مهوىٰ الافئدة، ويرددون كلمات قالها عبد المطلب.

ـ للبيت ربّ يحميه.

وقف ابرهة قبالة الكعبة ينظر باستعلاء الى جنوده وهم يتقدمون لتدمير الكعبة، وسحق كرامة الانسان العربي الذي ظل محافظاً على ولائه لابراهيم. وفي تلك اللحظات المثيرة ظهرت في الافق سحابة دكناء سرعان ما اسفرت عن اسراب كثيفة لطيور «ابابيل» تحمل بمناقيرها حجارة من سجيل.

وقد يتصور المرء مدى الدهشة والرعب الذي غمر الجنود، وهم

---

(١) كنيسة فخمة بناها ابرهة في اليمن في محاولة لتوجيه انظار العرب اليها بدل الكعبة.

يتعرضون لقصف جهنمي رهيب، أحال قـوّتهم الى ضـعف، ومـرّغ كبرياءهم بالوحل.

ورأى ابرهة غضب السماء يبدد احلامه في قلب الحجاز، فامتلأت نفسه رعباً، كان يتفادىٰ الحجارة المشتعلة دون جدوى، ووليٰ الجيش مذعوراً لا يلوي على شيء.

وشهدت مكة والطريق المؤدية الى اليمن تساقط جثث الاحباش كعصف مأكول، ومات ابرهة على بوابة صنعاء.

وفي ذلك العام ذاعت شهرة عبد المطلب حفيد ابراهـيم وراعـي البيت العتيق.

## وقد ولد الربيع

ورأى عبد المطلب ان يزوج ابنه عبد الله آخر الابناء بعد ان بلغ من العمر اربعة وعشرين عاماً.

واقترن الشاب الذي افتداه أبوه بمئة من الأبل[1] بفتاة اسمها آمنة كريمة المحتد فأبوها سيّد بني زهرة.

وأقام العروسان عند أهل العروس استجابة لعادة عربية حينما يتم الزواج في بيت العروس.

---

(١) قصة النذر المعروفة.

ولما مضت ثلاثة ايام انتقلت الاسرة الصغيرة الى منازل بني عبد المطلب.

وعندما انتهت الاستعدادات في رحلة قريش في الصيف غادر عبد الله مكة نحو الشام، الى مدينة غزّة.

وقد استغرقت الرحلة شهوراً ليعود بعدها الى ارض الحجاز، ويشاء القدر ان يتوقف عند أخواله في مدينة يثرب، ولم يكن يدري ان هذه المحطة ستغدو مثواه الاخير.

وفجعت العروس بوفاة زوجها وكانت حاملاً، كما فجع ابوه عبد المطلب ومكّة كلها بهذا النبأ.

وتأثر عبد المطلب لرحيل ابنه السريع، وهو الذي افتداه فداء لم تسمع به العرب من قبل.

لم يترك عبد الله سوى خمسة من الابل وقطيعاً صغيراً من الغنم وجارية هي ام أيمن.

وتمرّ الشهور وتحين ساعة المخاض ليولد حفيد عبد المطلب؛ كان سيد مكة في رحاب الكعبة عندما بشر بميلاد الحفيد وفي تلك اللحظة تفجرت ينابيع الحب في قلب الجدّ.

احتضن الشيخ حفيده وهتف:

ـ سميته محمداً

وانتقل الاسم العجيب في منازل مكّة، اسم جميل حلو، يشبه نغمة حالمة.. كيف ومض هذا الاسم في ذهن سيّد مكّة، ويتساءل بعضهم.

ـ وأسماء الآباء... والاجداد.. لماذا محمد؟!

تمتم الشيخ:

ـ ليكون محموداً في السماء وفي الأرض.

وهكذا اقترن ميلاد محمد بعام الفيل.. لقد هزمت عاصفة الشتاء وولد الربيع في موسم الربيع[١].

## القاعدة الجغرافية للتاريخ

اذا كان للبيئة تأثيرها في طبيعة الانسان، فلقد أكسبت بيئة الحجاز، بتضاريسها ومناخها، وبمعالمها الجغرافية الانسان العربي صفات عديدة.

فهو خفيف في وزنه، نحيف في بدنه، صبور في مواجهة المشاق قنوع في طعامه، في فكره سرعة وبديهة، وفطنة وذكاء وخيال مشتعل، وكبرياء وعزّة تتألق في عينيه السوداوين وشاعرية مرهفة، جعلته شغوفاً بالحكمة والامثال.

لقد اسهمت هذه البيئة في صياغة جوانب كثيرة من شخصية

---

(١) ولد سيدنا محمد(ص) في شهر ربيع الأول سنة ٥٧٠ م.

محمد(ص)، ولم تكن الكاميرا التي ظهرت قبل أقل من قرنين موجودة آنذاك لتنقل لنا صورة عن هذا الانسان العظيم.

ولكن التاريخ الذي استيقظ مأخوذاً في سنة ٦١٠ م قدّم لنا ملامح عن محمد وقد بلغ الذروة في نموّه الجسدي والفكري.

لم يكن فاحش الطول، كان ربعة وقد «جعل الخير كلّه في الربعة» اما بشرته فكان ازهر لونها اي بيضاء ناصعة، لاتشوبها صفرة ولاحمرة.

رجِلُ الشعر لامسترسل ولا جعد، يشبه تموجات الصحراء، وكان يبلغ شحمه اذنيه، وقد بدت سوالفه متلألئة.

واسع الجبين، بين حاجبيه فاصل لطيف، وعيناه نجلاوان، فاذا ابتسم أفتر عن لآلي مرتبة.

فاذا مشىٰ بدا كزورق ينساب في بحيرة هادئة، وكان يقول:

ـ انا اشبه الناس بآدم، وكان ابي ابراهيم اشبه الناس بي.

## الصبي العظيم

نشأ محمد(ص) في احضان جدّه عبد المطلب فكان شغله الشاغل، لكأن الصبي ورث الحب العظيم عن ابيه الراحل.

ورأى سيد مكّة ان ينشأ حفيده في الصحراء والبوادي، ولقد كانت

نساء البادية يقصدن ام القرى في السنوات العجاف يرضعن اولاد الاشراف لقاء أجر معين.

وكانت المرضعات يقصدن البيوت الثرية طمعاً في العطاء فكان اليتم آخر مايفكرن فيه.

وجاءت حليمة تبحث عن وليد، فاذا هي ترى محمداً، ولعلّها ارادة السماء ان يتفجّر نبع الحب في قلب «السعدية» لتحتضن الوليد اليتيم، وتنطلق به الى البادية.

ومر عامان تدفق فيهما الخير في تلك البقعة من دينا الله، فاذا ذلك الصبي يمن وبركة.

وتشعر حليمة بالحزن فلقد آن للصبي ان يعود الى امّه، ومايزال ينبوع الحب يتدفق في قلبها.

وصادف ان اجتاح الوباء مكّة، فخشي عبد المطلب على حفيده، عاصفات الدهر، واستجابت آمنة لرغبة الجدّ، وهي ترى عيني حليمة تبرقان فرحة بمحمد.

ويعود الصبي الى البادية تملأ عينيه الصحارىٰ وتبهره سماؤها الزاخرة بالنجوم.

وتشعر حليمة بان الصبي قد اضحى جزءاً من كيانها، حتى جعلها تخشى عليه عوادي الزمن.

ويسأل الصبي امّه بنت الصحراء عن اخوته في الرضاعة:

اين الشيماء وأنيسة، وعبد الله.

فتقول له:

ـ فدتك روحي انهم يرعون غنمنا.

وعندما رأى في قلبه رغبة ان يذهب معهم، فينطلق في الصحراء مع اخوته؛ رجّلت شعره وألبسته ثوباً جديداً، ولم تنس ان تضع في جيده قلادة.

وتساءل الصبي عن سرّ القلادة، فقالت:

ـ انها تحميك من الشرور.

ويخلع محمد القلادة قائلاً:

ـ هناك يا أمي من يرعاني ويحميني من الشرور.

وارتسمت علامة استفهام في عيني من وهبته الدفء واللبن فيقول:

ـ الذي خلقني يحميني ويرعاني.

وتقف الام مشدوهة أمام حكمة هذا الصبي المكي.

وينطلق محمد يملأ رئتيه بنسمات الصحارى مسروراً بأخيه واختيه، في صحراء لاتكاد تنتهي.

# وترحل الأم

ان القدر لايكف عن رمي السهام، ولقد شاء ان يختطف هذه المرّة آمنة كما فعل ذلك بعبد الله؛ فلم يكد الصبي يبلغ من عمره ست سنين حتى وجد امّه في «الابواء»[1] تنطفئ كما تنطفئ الشموع وهي لم تكد تبلغ الثلاثين بعد.

ويرىٰ سيّد مكة حفيده وحيداً قد فقد حنان الامومة كما فقد حنان الابوة من قبل، فيتضاعف حبّه حتى ليكاد يملأ كل كيانه.

ومرّ عامان آخران عاش خلالهما الصبي في ظلال وارفة يغمره الحب وترعاه كف بيضاء نديّة، ولقد كان سيّد مكة وراعي بيت ابراهيم يرى في حفيده مجداً وأي مجد، فطالما اصغى الى بشارات الرهبان وكهنة ذلك الزمان بان نبياً قد اطلّ زمانه، فينظر الى محمد فاذا هو الروح التي تنطوي في اهابها جذوة النبوّات.

وعندما بلغ محمد الثامنة اغمض عبد المطلب عينيه بعد ان اطمأن الى مصير حفيده العظيم، وكانت آخر كلماته وهو يوصي قبيلته قائلاً: لقد خلفت لكم الشرف العظيم.

انتخب سيّد مكة من بين ابنائه ابا طالب وكان شقيق عبدالله، ولقد

---

(١) في الطريق بين مكة والمدينة، تبعد عن المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً.

كان عبد مناف يحبّ اخاه الذي سافر الى الشام ولم يعد، فانتقل حبّه الى ذكراه الخالدة منه: ذلك الصبي الدافئ الذي تعلم من قسوة الزمان الصمت والصبر والتأمّل، كما تعلّم منه الأدب.

فاذا الحكمة تشع من عينيه، والجمال الحقيقي يتألق في جبينه.

## شيخ البطحاء

وبالرغم من ان الثراء يصنع بسحره الزعامات، في ذلك الزمان وربّما في كل زمان ومكان، إلّا ان ابا طالب كان استثناء لقاعدة اعتادها الناس.

فلقد ورث ابو طالب زعامة مكّة بمجده الاخلاقي وبروحه الكبيرة حتى قال مؤسس البلاغة في دنيا العرب «ان ابي ساد الناس فقيراً وما ساد فقير قبله».

## في حنف فاطمة

وفي منزل ابي طالب يجد الصبي اليتيم نبعاً يتدفق حناناً ومحبّة، فلقد وجد فاطمة بنت اسد امّاً تمكنت ان تبدد في قلب الصبي كل مشاعر اليتم فإذا به في منزل جعلت منه فاطمة عشاً دافئاً في زمن الزمهرير.

ولقد بلغ من رعايتها له ان كانت تحرم اولادها من القوت في ايام القحط وتطعمه.

وبلغ من تقديره لها وحبه اياها انها لما ماتت، انفجر باكياً وهو يتمتم:

ـ اليوم ماتت امي.

ثم كفنها بقميصه ونزل في قبرها واضطجع فيه، حتى اذا رأى الدهشة ترتسم على وجوه اصحابه قال:

ـ كانت امي؛ تجيع اولادها وتطعمني، وتشعثهم وتدهنني وما احسست باليتم منذ لجأت اليها.

## حلف اخلاقي

تخطى محمد العشرين من عمره عندما نشبت حرب «الفجار»[1] فاشترك مع عمه ابي طالب في صدّ العدوان عن «كنانة».

قال له الكنانيون لما رأوا النصر في جبهتهم:

ـ يابن مطعم الطير وساقي الحجيج، لاتغب عنا فانا نرى بحضورك الغلبة والظفر.

---

(١) معارك نشبت بين قبيلتي كنانة وقيس في شهر رجب وهو من الاشهر الحرم، وسميت بالفجار لانها انتهكت حرمة الشهر الحرام.

فقال محمد :

ـ اذا اجتنبتم الظلم والعدوان فإتي، لا اغيب عنكم.

وعاهدوه على ذلك.

واصبح محمد شخصية لها ثقلها في المجتمع المكي، فلقد كان سيداً وحصوراً.

وكانت مكّة مدينة الاقوياء، وكان الاقوياء فيها هم الاثرياء، والثروة في بعض الاحيان بل في اغلبها شيطان يغوي صاحبها ويفسده.

وشهدت دار عبد الله بن جدعان تحالف اخلاقي من اجل منع العدوان على الوافدين الى مكّة في مواسم الحج.

وكان محمد عضواً في ذلك الحلف الذي انقذ «القتول»[١] من فضيحة الاغتصاب والعار.

## الجبل والسماء

لقد علّمت الحياة محمداً الصمت، والصمت محراب التأمل، يغوص فيه المرء الى الاعماق البعيدة، أو يحلّق في السماء باجنحة من النور.

---

(١) من اضوأ نساء العرب كما ورد في كتب السيرة، وفدت مع ابيها الى مكة للحج فاختطفها منبه بن الحجاج، ثم أُجبر على تسليمها قبل ان يمسها بسوء.

وعندما يصغي المرء، عندما يتعلم لغة الصمت، يسمع في عوالمه نداءات عجيبة.. نداءات تعجز الأذن الآدمية عن سبرها؛ فاذا الاشجار تتحدث، وصخور الجبال، واذا للاشياء لغتها.

وكانت الحياة في مكّة صاخبة طافحة بالضجيج؛ من اجل هذا يمّم محمد وجهه شطر الجبل؛ فكان حراء على ميعاد مع هذا الانسان.

وأصغى محمد الى نداء الجبل؛ ان هلّم الى الاعالي.. الى القمم؛ فالانسان يرى العالم بوضوح اكثر من فوق جبل.

ولم يكن حراء جارا قريباً لمكة، بل يبعد عنها ثمانية اميال عربية[1] وكان محمد يطوي تلك المسافات باتجاه الشمال ليأوي الى غار في السفوح لايكاد يتسع إلا لثلاثة اشخاص.

وفي ذلك الغار ومن على سفوح حراء، كان محمد يتأمل الارض والسماء.. يتأمل عالمه الكبير الذي يحيط به ويغوص في عالمه الاكبر المودع في اعماق نفسه.

وربما في غمرة الصمت والليل؛ سطع سرّ الوجود بكل غموضه وشفافيته، ولم يكن هناك من الاوهام والاباطيل مايحجب ذلك عنه، فاكتشف اجوبة طالما حيّرت الانسان منذ القدم والى ان يقضي الله

---

(١) يساوي الميل العربي ٢كم بينما يعادل الميل الذي يستخدم في قياس المسافة حالياً ١/٦٠٠كم.

امراً كان مفعولاً.

وكانت الصحراء باتساعها وترامي اطرافها، والجبال بشموخها وصمتها والنجوم في اغوارها التي لايسبرها احد عوناً له في اكتشاف الحقيقة، حقيقة الاشياء وجوهرها.

## يوم اتصلت السماء بالارض

هل كان الجوّ صحواً، فالشمس تغمر الاشياء بالدفء والنور؟ هل كان غائماً فبدت السحب في زرقة السماء سفناً مبحرة؟ أم تراكمت فيها جبال، وبحيرات وتلال وخلجان؟

هل اشتعلت البروق، ودوّت الرعود ذلك اليوم، هل كان محمد في احضان الغار ام على سفح الجبل بين صخور حراء.

لايعلم المرء، ماحصل في تلك اللحظات المثيرة.. يوم هبط الملاك يحمل كلمات السماء.

ربّما تكهرب الفضاء، غلالة شفافة من نور عجيب تغمر المكان.

نور لاينتمي الى ضوء الشمس، نور يشبه مايسطع في النفوس ويضيء القلوب.

غمر الصمت الاشياء.. تلاشت الاصوات.. انسحبت الاشياء الى مكنوناتها، ولم يعد محمد يسمع شيئاً.. سوى كلمات... كلمات مزلزلة

تنفذ في اعماقه.. نفوذ الشعاع في البحيرة الرائقة:

ـ اقرأ.. إقرأ باسم ربّك الذي خلق.. خلق الانسان من علق.. إقرأ وربّك الاكرم.. الذي علّم بالقلم .. علّم الانسان ما لم يعلم.

صوت سماوي يكاد يستوعب الدنيا بأسرها...

ـ يامحمد ! انت رسول الله وأنا جبريل.

امر عجيب! ماذا حدث؟ ماهذا الدوي الذي تردده الكائنات؟

لكأن صوت الملاك قد فجّر في مكنونها الاسرار كما تنفجر الصخور عن ينابيع الحياة في لحظة تماس مع عالم بعيد... عالم لاينتمي الى الطبيعة في تكوينه وعناصره.

الاشواك وذرّات الرمال، والشجيرات المتناثرة هنا وهناك، والصخور التي تبدو صمّاء تردد بصوت له دوي:

ـ يامحمد ! انت رسول الله.

مرّت لحظات مشحونة بروح سماوية.. سمع فيها آخر الانبياء في التاريخ حديث الكائنات.. انها لحظات الولوج في عالم الملكوت.

انطوت اللحظات لتعود الاشياء الى سابق عهدها منذ الآف السنين، وانطوت لحظة الاتصال بين رسول ملاك وانسان... رسول السماء، ورسول الارض.

انحسرت تلك الشحنات التي غمرت المكان في لحظة اتصال

لايطيقها إلا قلب نبي.

لم يبق في كيان محمد سوى كلمات لاتنتمي الى ابداع بشري كلمات قادمة من وراء الافلاك... كلمات يلتهب لها الجسد الآدمي.

## العودة

ويعود محمد الى مكة لايلوي على شيء. ينوء بحمى الرسالات.

جسده الملتهب، ينتفض، حتى اذا التقى خديجة هتف:

ـ زملوني ... زملوني..

ورأت خديجة جبين زوجها العائد من الجبل مضيئاً قد التمعت فيه حبّات العرق كقطرات الندى مبهوراً بلحظة الاتصال.. الاتصال بين عالمين .. عالم الطبيعة، وعالم ماوراء المحسوسات..أو الشهادة والغيب.

قالت خديجة مأخوذة بما سمعت:

ـ أبشر يابن العم.. اني ارجو ان تكون نبياً.

وأوى محمد الى فراش دافئ، فيما انطلقت خديجة التي هزتها المفاجأة الى «ورقة بن نوفل»[1].

---

(١) ابن عم خديجة اعتنق النصرانية في الجاهلية، وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والانجيل، فقد بصره في شيخوخته.

هتف «ورقة» :

ـ قدوس قدوس.. لقد جاءه الناموس الاكبر الذي جاء موسى بن عمران.

## الايمان

آمنت خديجة فكانت أول أمرأة تعتنق رسالة السماء، لقد عاشت خديجة مع زوجها خمس عشرة سنة، عرفت فيها دقائق زوجها.. عرفت روحه العظيمة التي تكاد تسع الدنيا، وعرفت اخلاقه الكريمة التي تكاد تسمو به في عالم الملائكة؛ لهذا آمنت به وشهدت انه رسول من الله الى الناس كافّة.

ان للمرأة في قلب زوجها مكاناً، جزءاً من الروح لايعرف الانفصال. من اجل هذا كانت اول انسان يبشره الرسول بنبأ السماء.

وجاء علي ذلك الفتى الذي لايعرف في الدنيا سوى ابن عمه محمد.

ومحمد لم يكن لعلي ابن عم ولا حتى أخ فحسب بل كان له أباً ومعلماً، أرأيت كيف يتبع الفصيل امّه ، يشعر بالذعر اذا لم يكن قربها ، كذاك علي كان يتبع معلمه في الحياة.

طالما انطلق معه الى حراء في السنين الخوالي، يتعلم من حركاته

وسكناته ومن منطقة وصمته دروساً وأي دروس.

يقول مؤسس البلاغة في دنيا العرب:

«ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل اثر امه، يرفع لي في كل يوم من اخلاقه علما ويأمرني بالاقتداء به ، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولايراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الاسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة وأشمّ ريح النبوة، ولقد سمعت رنّة الشيطان، فقلت: يارسول الله، ماهذه الرنة؟ فقال : هذا الشيطان قد يئس من عبادته، انك تسمع ما اسمع وترى ما أرى إلا انك لست بنبي.

وقد قدر لهذا الفتى ان يواكب من تاريخ الاسلام أكثر الفصول اثارة. حتى اصبح رمزاً من رموزه الخالدة.

وتمرّ سبع سنين ليس على وجه الارض سوى ثلاثة نفر يعبدون الله على دين الاسلام، دين ابراهيم.

## فأس ابراهيم

ان للكلمة احياناً فعل الخوارق، مثلما تنفجر عن الصخور ينابيع الحياة، مثلما تنفجر الارض الهامدة عن براكين غضب؛ يكون للكلمة شأن؛ ربّما تكون سيفاً بتاراً، نهراً دفاقاً، اجراساً ونواقيس، فأساً تحطم

وجوه الالهة المزيفة.

وهكذا قال محمد(ص) :لا إله إلا الله.

وانخلعت قلوب الذين كفروا، فمئات الالهة في خطر، لقد جاء محمد بدين جديد.. إنه يسفّه الآباء والاجداد.

انه خطر على آلهة قريش، وآلهة قريش عبادة وتجارة. وكان على ابي جهل، وأبي سفيان، وأمية بن خلف ان يتحركوا مادامت مئات الالهة المحدقة بالكعبة جامدة لاتتحرك. انها لاتكف عن النظر ببلاهة الى ماحولها ومن حولها.

## الشمس والقمر

كانت الشمس تتألق في الافق تغمر الكعبة بالنور، وقافلة قادمة من ارض اليمن، تنحدر من التلال القريبة وعبيد منهمكون بانجاز اعمال لاسيادهم؛ لهم بشرات مختلفة؛ هذا افريقي وجهه يشبه لؤلؤة سوداء، وذاك قادم من أرض الروم، وذلك عربي الملامح.

لقد ولدوا احراراً ثم عصف بهم القدر.

كل شيء بدا جامداً في مكانه جمود الالهة المحيطة بالكعبة، كل شيء كان ساكناً سكون المياه الآسنة في المستنقعات.

شيء واحد بدا يتحرك، تحرّك النسغ في الاشجار يوم يطلّ الربيع

قطرات مطر، تتساقط فوق المياه الراكدة، فتحيل السكون الى دوائر متموّجة.

نسمة هواء تملأ الصدور ببشائر الحرّية.

نهض سادة قريش واثرياؤها، نهضوا غاضبين، فمحمد يهدد امجادهم، آلهتهم وكل امتيازاتهم بالخطر.

بدا وجه ابي جهل مسودّاً من الحقد، والقلق يغمر وجه ابي سفيان، عندما دخل وفد قريش منزل ابي طالب.

كان المنزل على بساطته يمثل قلعة المقاومة التي لجأ اليها محمد(ص).

العيون تبرق حقداً، وقد احدق الرجال بأبي طالب؛ هيمن صمت مهيب. كان ابو طالب ينظر اليهم بودّ، ليدمّر عاصفة الحقد.

قال ابو جهل:

ـ لن نصبر على شتم آبائنا وعيب آلهتنا، فقل لابن اخيك ليكف عنا او ننازله واياك حتى يهلك أحد الفريقين.

كان الوضع متأزماً ينذر بوقوع حرب أهلية لاتبقي ولاتذر، وسوف تشتعل الحرائق، وتتحول الكعبة الى مسرح رهيب للقتال.

هكذا فكر ابو طالب، فأراد ان يخفف من توتر الوضع.

دخل على النبي وقال:

ـ يابن اخي! ابق عليّ وعلى نفسك ولاتحمّلني من الامر ما لا أُطيق..

امتلأت عينا الرسول بالدموع.. سوف يغادر هذه القلعة ليقاتل وحده الذين كفروا، انهم لا ايمان لهم.

بكى من اجل عمّه، لقد شاء الله ان يحارب هذا الرجل في شيخوخته.. ان يدافع عن رسالة السماء.. ان يقف بوجه شياطين الأرض:

قال رسول السماء:

ـ يا عماه! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي علىٰ أن اترك هذا الامر ما تركته أو أهلك دونه.

نهض النبي ليغادر قلعة عتيدة بددت عنه مشاعر اليتم يوم كان صغيراً ومنحته السلام في زمن الخوف.

هتف الشيخ بابن اخيه:

ـ ادنُ مني.

وطبع أبو طالب قبلة دافئة علىٰ جبين أزهر أضاءته السماء وقال:

ـ اذهب يا بن أخي وقل ما تشاء.. والله لا أُسلمك لشيء ابداً..

ما تزال راية المقاومة تخفق فوق القلعة، وما يزال شيخ البطحاء قوياً مهاباً لن يزلزله عن موقفه أحد.

الكعبة تنشر ظلالها الوارفة في المكان وقـد بـدت ذرىٰ التـلال، تتوقد حمرة في شمس الصباح، كان رسول الله جالساً وحده غارقاً في تأملاته، يفكر، قد صنع من الصمت محراباً له يقيه شرور العالم.

وكانت ثلّة من زعامات قريش جالسين؛ يتصفحون وجوه الآلهة، التي بدت ذلك الصباح كائنات خرافية تحدق ببلاهة.

قال عتبة بن ربيعة وقد رأىٰ محمداً وحده:

ـ يا معشر قريش! ألا أقوم لمحمد وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها ويكف عنّا.

هزّ الجالسون رؤوسهم بحماس:

ـ نعم يا ابا الوليد.

نهض عتبة وتقدم نحو رسول السماء، جلس عنده بعد أن حـيّاه تحية الصباح وأقبل عليه يحدّثه بودّ:

ـ يابن أخي ان كنت تريد بما جئت به من هذا الامر مالاً جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالاً.

وان كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا حتى لانقطع امراً دونك.

وان كنت تريد ملكاً ملّكناك علينا.

غادر النبي محراب الصمت وقال :

ـ أفرِغتَ يا ابا الوليد؟

ـ نعم يابن اخي.

ـ اسمع مني :

بسم الله الرحمن الرحيم

«حم . تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعْرَض اكثرهم فهم لايسمعون. وقالوا قلوبنا في أكِنّة مما تدعوننا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل... ».

ما بال عتبة تغشى عينيه طيوف تعبر فيها الغيوم. ما باله يبدو سكران لكأنه يطير في عوالم بعيدة؟ هل لهذه الكلمات التي تنساب كنهر هادئ كل هذا السحر؟!

الكلمات تتدفق كنبع يتفجر بالحياة :

ـ «فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ».

دوّت الصواعق في أذني عتبة، تجسّدت له مشاهد من قبائل غابرة، عصفت بها الريح من كل مكان.

ـ «فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب

الخزي في الحياة الدنيا... ».

ـ «وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة عذاب الهون... ».

اشتعلت الصواعق، ودوّت الرعود.. وأعقب ذلك يوم تحشر فيه النفوس الآدمية لترى جزاء اعمالها...

مايزال عتبة مبهوراً مأخوذاً بروعة البيان، بانسياب الكلمات، بدويّ المشاهد، انبعث في اعماقه نداء.. انه كلمات السماء، كلمات لايمكن ان تكون من صنع بشر، انه رائعة أخّادة، فيها سحر وروعة، فيها حلاوة وطلاوة،

رسول الله يرسم المشاهد الخلابة:

ـ «ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ».

انبثقت جنة من نخيل واعناب، وارفة الظلال، فيها ما تشتهي الانفس وتلذّ الاعين..

ـ «ومن آياته الليل والنهار .. والشمس والقمر، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم اياه تعبدون ».

وهوى النبي ساجداً لله الذي خلق الشمس والقمر والكواكب والنجوم ونهض أبو الوليد مسحوراً بالكلمات العجيبة، مأخوذاً بروعة

البيان.

تمتم وهو يقص على اصحابه!

ـ لقد سمعت منه قولاً .. والله ماسمعت مثله قط لم يكن شعراً ولكن فيه حلاوة الشعر، ولم يكن سحراً، ولكن فيه أثر السحر.

سكت قليلاً وأردف:

ـ اطيعوني يامعشر قريش.. خلّوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه.. والله ليكونن لقوله نبأ عظيم.

## في الجانب الآخر من البحر

استنفدت قريش اساليبها في قهر محمد(ص)، فالكلمات القادمة من وراء الافلاك تطوف منازل مكة، وتعبر أبنيتها، توقظ النائمين، تدلّهم على الفجر القادم من وراء آلاف الليالي المترعة بالظلام الحالك الثقيل.. كلمات لها تألق الضوء، وشذى البنفسج، ونسمات الربيع.. ايها النائمون انهضوا.. ايها المقهورون هلموا هلمّوا.. الى عالم الأمل والحرية.

بدت الآلهة حاقدة، ربما كان هبل اكثرهم حقداً، فهو الذي يحرس قوافل قريش، ويملأ جيوب تجارها ذهباً وفضة.

صعّد زعماء مكّة حربهم ضد المسلمين، السياط تنهال على

الاجساد الآدمية، والرمضاء تنضج الجلود، ومازال تجار قريش هم اصحاب الأمر والنهي في هذه القرية الظالم أهلها.

اجتمع المسلمون في دار الارقم، الحزن والعذاب يطل من العيون وآهات المعذبين تملأ الفضاء.

قال رسول الله وقلبه يذوب حزناً:

ـ لو خرجتم الى ارض الحبشة فإن بها ملكاً لايُظلم عنده أحد...

الحبشة ارض صدق... اخرجوا الها حتى يجعل الله لكم فرجاً مما انتم فيه.

انفتحت كوّة من ضياء و... نافذة من أمل...

ومع الخيوط الاولىٰ من فجر احد ايام رجب، كانت قافلة صغيرة تتسلل بحذر، تودّع مكة ام القرى وما حولها صوب البحر الاحمر.

وشهدت تلك المسافات بين مكة وشواطئ البحر قوافل عجيبة.. لاتحمل معها من متاع لدنيا شيئاً إنما زادها قلوب مؤمنة وآمال وردية في حياة آمنة مطمئنة.

وكانت السفن في ميناء جدّه تحمل المهاجرين الى ارض طيبة يحكمها نجاشي عادل لايظلم في حضرته أحد.

اعلنت قريش حرباً ضروساً.. حرباً لاهوادة فيها. فيها اسلحة لاتقل فتكاً عن السيوف والنصال والرماح.. الجوع.. والحصار.

كان أبو جهل متحمساً لفكرة المقاطعة. انها سلاح قريش الذي لايقهر. لن يستطيع ابو طالب هذه المرّة الصمود. لن تجديه المقاومة.

سوف يسلّم محمد نفسه ويستسلم، وعندها ستغفو الآلهة قريرة العين، وينام تجار مكّة ناعمي البال.

وشهدت الكعبة مؤتمراً خطيراً تداولت فيه الرؤوس بنود الحصار الشامل اقتصادياً واجتماعياً.

فلا علاقات مع بني هاشم، لا زواج ولا مصاهرة، لا بيع ولا شراء ولا كل شكل من اشكال العلاقات الانسانية، والثمن من وراء ذلك كله تسليم محمد أو تكميم فمه.

قاد شيخ البطحاء قبيلته الى الخيار المرّ.. الى واد غير ذي زرع.. الى شعب بين الجبال.

وشوهد ابو طالب ذلك اليوم وهو يتفقد الوادي مع اخيه الحمزة لسدّ ثغرات في المكان، فقد يتسلل منها الغادرون لاغتيال محمد(ص).

لقد اضحى محمد(ص) رمز التحدي.. القلب النابض.

الذي يخفق بالحياه والأمل. وتمرّ الايام والشهور...

كان الجوع والحرمان يفعل فعله في الاجساد الآدمية.

كانت تجربة مريرة.. علّمت تلك القبيلة الصغيرة الصلابة والثبات. علّمتهم اشياء كثيرة. تعجز عن استيعابها الشعوب في ظلال الترف وحياة الدعة والخمول.

وتمرّ الايام والشهور، والوادي مفعم بروح الايمان والصلابة والثبات حتى اذا اكتملت اعوام ثلاثة، بعث الله الارضة، تلتهم صحيفة الحصار، وتنسف بنودها الظالمة بنداً بنداً؛ فلم تترك أثراً إلا كلمة واحدة تنطوي في حناياها اسرار الوجود، وتفاصيل الكون : باسمك اللهم ، تلك الكلمة التي اورثها آدم الاجيال جيلاً بعد جيل.

وجاء رسول الله يحمل الى عمه البشرىٰ :

ـ ياعم ! ان الله قد سلط الارضة على صحيفة قريش..

وانطلق ابو طالب يتحدى قريش، فهتف بايمان أثبت من الجبال:

ـ يامعشر قريش ، ان ابن أخي قد اخبرني ان ارضة قد اكلت صحيفتكم فمحت فيها الظلم وكلمات الغدر..

حتى اذا دخل الرهط من قريش جوف الكعبة، اتسعت عيونهم دهشة؛ لقد قهرتهم حشرة صغيرة.. مرّغت كبرياءهم في الوحل.

مرّت سنوات عشر، سنوات مثل الجمر، وفـي ذلك العـام خـرج المحاصرون من الوادي، بعد إلغاء صحيفة المقاطعة، خرج رسول الله والذين آمنوا، خرج ابو طالب، وقد هـدّته السـنون والايـام؛ وعـاد الصغار يلعبون في شوارع مكة وأزقّتها، وخرجت خديجة وهي تنظر الى زوجها الصبور المقهور نظرات فيها حب ووداع ورحيل وشيك.

وشعر ابو طالب هو الآخر انه يـقترب مـن النـهاية.. نـهاية كـل الحيوات؛ فاراد ان يطمئن على مصير محمد ذكرى الحبيب الراحـل «عبد الله»، فدعا زعماء قريش وسادتها، حتى اذا أحدقوا به من كل صوب وهو في فراش الموت، قال:

ـ لن تزالوا بخير ماسمعتم من محمد واتبعتم امره، فاطيعوه تنالوا السعادة في دنياكم وأخراكم.

كانت الآذان صماء صماء لاتفقه شيئاً من كلمات رجل على وشك الرحيل.

وتمرّ الايام ثقيلة قلقة، كان ابو طالب فيها يـودع دنـياه الفـانية، فجمع افراد قبيلته حوله واوصاهم بالدفاع عن محمد ورسالته حتى النهاية.

واغمض ابوطالب عينيه، ودّع العالم المشحون بالحوادث ليرحل الىٰ عوالم بعيدة تزخر بالسعادة والسلام.

وشعر رسول الله بصرير العاصفة، لقد انهار السدّ العظيم ؛ السدّ الذي حماه سنين طويلة، وها هي السيول تنطلق من سلاسلها لتجتاح الحقل الاخضر.

نظر النبي(ص) الى عمّه مغمض العينين؛ اشتعلت في اعماقه الذكريات فتمتم بحزن!

ـ رحمك الله ياعم ربيتني صغيراً وكفلتني يتيماً ونصرتني كبيراً.

تذكر يوم كان صبياً في الثامنة، وكان ابو طالب قد استوى على ناقته يريد الشام في تجارة، وتذكّر كلماته وهو يبكي:

ـ الى من تكلني ولا أب لي ولا ام.

ورأى عمه يبكي .. يبكي بمرارة وهو يقول :

ـ والله لا أكِلك الى غيري.

واعتنقه ليبكيا معاً. ثم أردفه على ناقته التي راحت تقطع الصحاري والبوادي.

تذكر ايام المحنة والحصار... وها هو الآن راقد في فراشه يتحدث بلغة الصمت.. لغة لايفهمها الا الانبياء.

وبكى رسول الله .. بكى أيام الماضي والحاضر والمستقبل..

## الحبيب الآخر

وتمرّ الايام عصيبة، ويسدد القدر سهماً آخر الى قلبٍ ذاق مرارة الصبر حتى غدا كالشهد، والصبر سلاح الانبياء.

ودّعت خديجة زوجها.. رحلت بعيداً بعد ان خلّفت لديه فتاة لم تر الارض لها نظيراً... فاطمة، لكأنها حوراء قادمة من السماء.

كبرت فاطمة في زمن الحرمان .. في زمن الحصار.. في زمن اليتم، لهذا نشأت نحيلة القوام كغصن كسير. رسم القهر في عينيها الواسعتين لوحة حزينة.. مفعمة بالصمت.. تفكر.. تتأمل وتنطوي على نفسها في استغراق يشبه صلاة الانبياء.

نشأت فاطمة في زمن الجدب.. فغدا عودها صلباً ضارباً في الارض جذوراً بعيدة الغور. بدت اكبر من سنها. لتنهض بالحمل.. لتملأ فراغاً هائلاً أحدثه رحيل امها. نهضت سيدة صغيرة.. أمّاً رؤوماً لوالدها الذي اضحى وحيداً

## العروج

اشتدت عذابات الأرض، تكاثفت الظلمات، وبدت النجوم البعيدة قلوباً تنبض على وهن، ورسول السماء وحيد في الارض.. الارض

التي اريد لها أن تتطهر من أدران الشيطان، فآن لجبريل ان يهبط الى الارض، آن للروح المكين ان يغمر بشفافيته مادّة الطبيعة..يمسّها ويبث فيها روح القدس، كما آن للانسان ان يعرج.. ان يلج الملكوت؛ من اجل هذا كان محمد(ص) على ميعاد مع جبريل.. ومع البراق.

وانطلق محمد(ص) في رحلة مثيرة رحلة عبر الفضاء والزمن.

عرج رسول الله الى السماوات يتخطى مدارات الكواكب وآلاف النجوم.. يخترق جدران الزمن ليرى الآيات..

بدت الارض صغيرة.. ضئيلة .. زيتونة.. مشحونة الحوادث..

طاف رسول الله عوالم الملكوت في رحلة مثيرة خارج حدود الزمكان.. حتى اذا عاد الى كوكب الحوادث الارض المثقلة بالخطايا عاد اقوى من كل جبابرة الارض.. عاد قوياً كالزوبعة.. طاهراً كقطرات الندىٰ.. ثابتاً كالجبال.. عاد انساناً سماوياً.. او كائناً ارضياً مسّته السماء فاذا هو ينبوع نور.

## الى الطائف

وخرج رسول الله مع زيد بن حارثة الى الطائف.. الى قرية غير القرية الظالم اهلها..

يالعذاب الانبياء.. عشرة ايام يدور في احيائها يدعو الناس الى

النور القادم من السماوات... ولكن..

قهقه المترفون!

ـ اما وجد الله احداً يرسله غيرك؟

ـ انظروا الى هذا النبي!

قال رسول الله :

ـ اذن اكتموا علي لاتسمع بذلك قريش.

الخفافيش تكره النور..تحقد على الشمس.. تشعر بالموت اذا اشرق فجر جديد من اجل هذا حقد سادة الطائف.. ارادوا ان يطفئوا الشموع.. النجوم، الشمس والقمر.. اغروا سفهاءهم بهذا الرجل المكيّ، فاذا أزقّة الطائف تمطر حجارة رعناء. ومظىٰ رسول الله يتفادىٰ الحجارة والسخرية وكانت تصيبه في قدميه ورأسه.. حتى وصل جنّة من كروم واعناب.

الظلال الوارفة.. والسكينة.. والصمت دفعت بالرسول المكي ان يتفيّأ ظلال كرمةٍ في تلك الجنّة الارضية.

كان البستان لرجلين من مكّة هما عتبة وشيبة، وكان معهما غلام نصراني اسمه عدّاس.

كانا ينظران اليه... يتأملّان وربما يتساءلان: لم اختار محمد طريق العذاب كل هذه السنين؟!

اتجه رسول السماء الى السماء وقال بخشوع:

ـ اللهم إني اشكو اليك ضعفي.. وقلة حيلتي وهواني على الناس..

يا ارحم الراحمين..

انت ربّ المستضعفين.. وأنت ربّي.

الى من تكلني؟ الى بعيد يتجهّمني؛ ام الى عدوّ ملّكته امري؟

ان لم يكن بك عليّ غضب فلا أُبالي.. ولكن عافيتك اوسع لي.

أعوذ بنور وجهك الذي اشرقت له الظلمات وصلُح عليه امر الدنيا والآخرة من ان تنزل بي غضبك أو يحلّ علي سخطك..

قال احدهما :

ـ احمل اليه قطفاً من هذا العنب

حمل النصراني طبقاً من العنب ومضىٰ الى الرجل الشريد.

مدّ النبي يده وقال :

ـ بسم الله

تساءل عدّاس بشيء من الدهشة:

ـ ان هذا كلام مايقوله اهل هذه البلدة.

قال رسول الله:

ـ من اي بلد انت؟

اجاب عداس:

ـ انا نصراني من اهل «نينوىٰ»[1].

قال النبي(ص).

ـ قرية الرجل الصالح يونس بن متي.

تصاعدت دهشة عداس:

ـ وما يدريك مايونس بن متي؟!

ـ ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي

لو قدر للمرء ان يحضر ذلك اللقاء في ظلال تلك الكرمة لسمع دويّ الانهيارات في اعماق «عدّاس». انه امام رجل يتخطى اعمدة القرون ليلتحم بقافلة الانبياء.. قافلة تسير على اسم الله.. من آدم الى نوح الى ابراهيم وموسى وعيسىٰ ومحمد.

وعاد الشريد الى مكّة ـ ليبلّغ رسالات الله الى قرية هي ام القرىٰ.

**يثرب**

لم تكن مدينة يثرب التي تقع شمال مكة وتفصلها مسافة ٤٥٠ كم سوى مجموعة من المنازل والمزارع والحصون تنهض في بقعة خصبة

---

(١) مدينة قديمة على نهر دجلة كانت عاصمة للآشوريين نهضت على آثارها مدينة الموصل العراقية.

نسبياً، تبلغ مساحتها ٣٢ كم٢ تقريباً.. تحيط بها التلال و«الحرّات»[١].

يقع شمالها جبل صغير هو جبل أحد، وجبل «عير» في الجنوب الغربي منها، كما ينبسط بقيع الفرقد في شرقها، وترقد جنوبها قرية صغيرة هي قرية «قباء» لا تبعد عنها سوى ثلاثة كيلومترات.

كان العمالقة اول من سكنها فبنوا فيها الحصون وزرعوا النخيل، ثم نزح اليها فيما بعد «بنوقيلة» وهم تجمع قبلي يضم قبيلتي الأوس والخزرج. ويعود مصدر هذا النزوح الى اليمن، وبالتحديد الى القبائل العربية في الجنوب.

وكانت قبيلتا «قريظة» و «بني النضير» قد سبقتا هجرة الأوس والخزرج الى يثرب حيث سكنتا المنطقة الخصبة من تلك الارض، وهناك قبيلة يهودية ثالثة أقل شأناً هي قبيلة بنو قينقاع.

وقد كان لليهود في الجزيرة العربية نفوذ قوي يستند الى كيانهم السياسي في الدولة الحميرية الثانية في اليمن، وما لبث هذا النفوذ ان تضاءل بعد الغزو الحبشي لليمن والقضاء على الدولة الحميرية، فيما ظل نفوذهم الاقتصادي على قوته.

ظلّت يثرب تعيش بسلام وصفاء مدّة طويلة نسبياً الى ان دب الخلاف بين قبيلتي الأوس والخزرج. وكان اليهود يذكون روح

---

(١) الحرّة: أرض حصباء لاتصلح للزراعة.

التنافس بين الاخوة، الى ان تحولت العلاقة الى عداء سافر وتناحر، ثم اشتعال الحروب و «الايام»[١].

واقصى ما استفاده عرب يثرباً من اليهود، هو تقبلهم لفكرة النبوّة ورسالات السماء، إضافة الى ذلك فقد كان اليهود انفسهم يبشرون وينذرون جيرانهم بظهور نبي جديد قد أطلّ زمانه؛ وهذا ما ساعد على انهيار الوثنية بسرعة في هذه المدينة.

وفي هذه الظروف بدأ اول اتصال لعرب يثرب بسيدنا محمد(ص).

## وادي العقبة

كان رسول (ص) ينشط ببث دعوته في الحج حيث القبائل العربية تتدفق صوب مكة.

في وادي العقبة كان اول لقاء بين رسول الله وبين افراد من قبيلة الخزرج.. كانوا ستة اشخاص.. تحمسوا جميعاً للدين الجديد، ورأوا في سيدنا محمد(ص) الشخصية الوحيدة التي يمكن ان تنقذ مدينتهم من اخطار النزاع القبلي، ومشاعر الثأر المتأججة.

وانطلق اليثربيون الى مدينتهم يبشرون برسالة السماء واضحى اسم محمد(ص) على الشفاه.

---

(١) كان العرب في الجاهلية يطلقون على معاركهم اسم الأيام.

وفي موسم الحج التالي عاد خمسة منهم، ومعهم سبعة آخرون فيهم ثلاثة من قبيلة الأوس.

وفي وادي العقبة ايضاً التقى النبي(ص) الوفد اليثربي وعرض على افراده دعوة السماء، وقد اسفر اللقاء عن اسلام افراد الوفد، ثم بيعتهم على مبادئ الدين الجديد، وقد عرفت هذه البيعة ببيعة النساء[1].

ورأى النبي(ص) ان يرسل مع الوفد رجلاً من اصحابه هو مصعب بن عمير الذي سماه مصعب الخير.

ولقد كان لشخصية هذا الصحابي وحماسه وأدبه واسلوبه الهادئ الرضين، الأثر الكبير في انتشار الاسلام في منازل يثرب فلم يبق منزل فيها إلا واعتنق احد افراده الدين الجديد.

حتى اذا حل موسم الحج اذا عشرات الرجال ونساء ينطلقون الى مكة للقاء الرسول.

رتّب مصعب موعد اللقاء في ظروف بالغة السرّية، فقد كانت قريش تراقب بدقة تحرّكات النبي(ص) وتنظر بعين القلق الى لقاءاته مع القبائل العربية الوافدة للحج.

غمر الليل مكّة وضواحيها، وخيم صمت مهيب، وكان على رجال

---

(١) سميت بذلك لان بنودها خلت من مسائل الدفاع والقتال واقتصرت على وصايا اخلاقية، أو لوجود عفراء بنت عبيد التي تعدّ اول امرأة بايعت رسول الله(ص) في تاريخ الاسلام.

يثرب الذين ادّوا مناسك الحج ان يتظاهروا بالنوم لكي لا يشعر احد بما عزموا عليه.

انتصف الليل ونام الجميع، وانسل المسلمون فـرادى وجـماعات فيما ظل مشركو يثرب يغطون في نوم عميق.

وفي وادي العقبة اجتمع ستة وسبعون شخصاً منهم ثلاثة وسبعون رجلاً وثلاثة نساء.

وبعد انتظار قصير جاء النبي(ص) ومعه عـمه العـباس بـن عـبد المطلب.

ولقد وجد رسول الله في أهل يثرب حماساً للاسلام فريداً، وكانوا ينتظرون بفارغ الصبر مراسم البيعة الخالدة لآخر الانبياء في التاريخ.

وفي جوّ مثير تلا رسول الله آيات من القرآن الكريم، ثم قال:

ـ ابايعكم على ان تمنعوني ما تمنعون منه نساءكم وابناءكم.

وهذا اقصى مايمكن التعبير عنه في الدفاع حتى الموت.

وتقدم رجال يثرب ونساؤها للبيعة ليكون هذا اللـقاء فـي تـلك الليلة منعطفاً هاماً في تاريخ الاسلام.

عاد أهل يثرب الى مضاجعهم، لم يشعربهم احد، وانـطوت تـلك الليلة المثيرة بسلام.

# الهجرة

رافقت الهجرة الحياة البشرية منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا، وكانت وماتزال وستبقى ظاهرة اجتماعية لها مايبرّرها ابداً، وهي اذا بدت مجرّد احتجاج هادئ ضد الظلم والقهر، فانها تعدّ حدثاً كبيراً جداً، وبداية لفصل جديد في حياة الانسان أو الشعب المهاجر.

لقد تصاعد الظلم في مكّة حتى لم يعد محتملاً، وأضحت حياة تلك المجموعة البشرية التي آمنت برسالة السماء أمراً لايطاق، وكان رسول‌الله يسعى جاهداً في صنع مستقبل افضل لاتباعه فكانت الهجرة الى الحبشة حلّا مؤقتاً الى ان تم لقاء العقبة.

ففي غمرة الظلام والوادي القريب من مكة انفتحت كوّة للأمل والخلاص، عاد النبي المطارد الى قريته يبشر اتباعه المقهورين قائلا:

ـ ان الله جعل لكم إخواناً وداراً تأنسون بها.

وهكذا بدأ فصل جديد في حياة الاسلام، وشهدت تلك الليالي المريرة المفعمة بالخوف والقلق والأمل رجالاً يفرّون من وطنهم.. من الارض التي انجبتهم وقضوا فيها أيام صباهم. ووقفت قريش بكل جبروتها عاجزة أمام هذه الظاهرة الخطيرة، وبدا المجتمع المكي يهتز بشدّة، وكانت الالهة والمعادلات والمصالح تتأرجح بعنف.

ورأى ابو جهل وابو سفيان وامية وكل الرؤوس القرشية التي ساءها ظهور الاسلام، ان افضل الحلول في هذه الظروف هو تصفية محمد والتخلص منه.

واذا كان للتكتلات القبلية، وثقل بني هاشم الاجتماعي في حماية رسول الله طوال هذه السنين من القتل، فان اشراك القبائل في اغتياله سيجعل من بني هاشم عاجزين عن مواجهتها ثم التخلي عن فكرة الثأر.

وهكذا سولت لأبي جهل نفسه وولدت المؤامرة.

وكانت المؤامرة من الخطورة بمكان ان هبط جبريل من السماء:

ـ «واذ يمكر بك الذين كفروا ليُثبتوك او يقتلوك او يُخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين».

غمر الليل مكّة.. ملأ ازقتها بظلمة ثقيلة، وبدت النجوم وهي تومض من بعيد قلوباً خائفة.

كان ابو جهل يعبّ خمرته منتشياً بفكرته.. ستبقى مكة تتحدث في انديتها وتشيد بفطنته.

وفي تلك اللحظات المثيرة، والمؤامرة على وشك التنفيذ، دخل فتى الاسلام علي ابواب التاريخ، في واحدة من اكثر قصص الفداء اثارة ودرامية.

ان يصمد الرجال في المعارك يقاتلون حتى النفس الاخير فتلك شجاعة فريدة تدعو الى الاعجاب.. ولكن ان يقدم المرء نفسه للموت تتخطفه سيوف وخناجر فهذا ما لا يمكن ان تستوعبه ابجدية ما مهما بلغت من دقة التعبير واداء المعنىٰ.

همس علي وهو يصغي الى حديث رجل عاش معه اكثر من عشرين سنة:

ـ أوَ تسلم يارسول الله إن فديتك بنفسي؟

ـ نعم بذلك وعدني ربّي.

كان علي حزيناً فمكّة تلك القرية الظالم اهلها تتآمر على قتل انسان بعثته السماء لخلاص الارض، ولكن حزنه سرعان ماتحوّل الى فرحة كبرىٰ.

تقدم الفتى بخطى هادئة الى فراش النبي(ص) والتحف ببردته ينتظر السيوف التي ستمزقه.. وستتدفق دماؤه نقية طاهرة ترسم فوق

الثرىٰ قصة رائعة من قصص الفداء.. ورقد علي في فراش النبي، فيما انطلق الشريد صوب الجنوب لايلوي على شيء.

## الطريق الى يثرب

كانت خطّة النبي(ص) ان يتوجه جنوباً، نحو جبل ثور؛ ليختبئ فيه عدة ايام ريثما تعد وسائط النقل وتيأس قريش من القاء القبض عليه، كما ان مبيت علي في فراشه قد اسهم كثيراً في تأخير اكتشاف المتآمرين لنبأ هجرته.

وفي ظروف بالغة السرّية اشترى علي(ع) بعيرين للنبي(ص) وصاحبه ابي بكر؛ كما تم الاتفاق مع دليل الصحراء عبد الله بن اريقط. وبالرغم من بقاء الدليل على وثنيته فقد كان رجلاً أميناً وثق به النبي.

استيقظت قريش على دويّ المفاجأة، وتصرّف زعماؤها بهستيرية عنيفة، فقد انطلقت فرسان الدوريات يبحثون في الاودية، كما وضعت جوائز مغرية لمن يدلّ على الشريد أو يدلي بمعلومات تساعد في القبض عليه. وبالرغم من ادراكهم الى ان لدى بعض الافراد معلومات هامة ولكنهم فشلوا في انتزاعها.

لقد كانت قريش واثقة تماماً من القاء القبض على محمد، فقد

اهتدى خبراء الاثر الى منطقة تحوم حولها الشكوك بل انهم وصلوا الى جبل ثور حيث اختبأ (ص) وصاحبه في احد اغواره.

وهنا تدخلت السماء لتحمي آخر الرسالات في التاريخ.

تسلق احدهم الى الغار ليرى ما فيه ومن فيه، ثم سرعان ما عاد الى اصحابه.

ـ ماذا هناك؟

ـ لاشيء.

ـ والغار؟

ـ رأيت في فم الغار نسيج العنكبوت وأحسب انها نستجته قبل ميلاد محمد... ورأيت عشاً فيه حمامتان واغصاناً متشابكة لايمكن للمرء ان يدخل الغار إلّا بازالتها.

ـ اذن لم يدخله احد.

ـ نعم لم يصله انسان.

وكان رسول الله يصغي الى الحوار فهتف في اعماق قلبه:

ـ الحمد لله. وغمرت السكينة قلبه.

## الرحلة

وفي الموعد المقرر جاء الدليل يقود بعيرين وذلك بعد ثلاثة ايام

قضاها رسول الله في الغار.

تقع يثرب في الشمال من مكة ومع هذا فقد اتجه رسول الله جنوباً الى جبل ثور امعاناً في تغطية رحلته بالسرّية الكاملة.

وكان على الدليل ان يتجه نحو ساحل البحر الاحمر وسلوك طريق بعيد عن طريق القوافل.

كانت رحلة شاقّة.. وتمرّ سبعة ايام والنبي يقطع سهول تهامة في صيف ملتهب، وفي طريق بالغة الصعوبة، حتى اذا بدت مضارب بني سهم، تنفس النبي الصعداء، فقد مرّ الخطر ولن تستطيع قريش ان تفعل شيئاً.

في الثاني عشر من شهر ربيع الاول وصل قرية قبا، في ضواحي يثرب.

وفي قبا امضى النبي(ص) اربعة ايام مترقباً وصول ابن عمه علي بن ابي طالب.

وعندما حل يوم الجمعة يمم الرسول(ص) وجهه شطر المدينة، وكان آلاف السكان ينتظرون طلعته البهية.

في تلك اللحظات المهيبة عندما تغير المدن اسماءها[١]، وفي يوم ١٦ ربيع الاول الموافق ٢٠ / ايلول سنة ٦٢٢م وصل النبي(ص)

---

(١) اشتهرت يثرب فيما بعد باسم المدينة المنورة.

يثرب في لحظة تاريخية خالدة، فلقد هبّ أهل المدينة عن بكرة ابيهم لاستقبال آخر الانبياء في التاريخ.

وخرجت فتيات المدينة ينشدن اناشيد الفرح، وهن يلمحن من بعيد ركب المهاجر يجتاز ثنيات الوداع.

وفي تلك اللحظات المفعمة بمشاعر الأمل والفرحة واللقاء بدأ التاريخ الهجري، وتبلورت نواة المجتمع الاسلامي.

فلم تمض ايام قلائل حتى كتب النبي(ص) اول وثيقة تعلن ولادة الامّة الاسلامية ككيان مستقل له هوية:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا كتاب من محمد النبي نبي المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم:

انهم امّة واحدة من دون الناس..»[1].

ولقد تضمن الاعلان بنوداً غاية في الدقّة والنظام كشفت شخصية الرسول قائداً او زعيماً لدولة كبيرة فيما بعد.

وعندما تم الانتهاء من بناء المسجد في قلب المدينة اصغى المجتمع الجديد لصوت ينساب كنهر هادئ.. صوت عذب يدعو المسلمين الى الصلاة والتوجه نحو الله الخالق الباري الكريم.

---

(١) سيرة ابن هشام.

صوت يعلن ان لا اكبر من الله شيء، وانه وحده لا إله سواه ولا معبود غيره. وان الصلاة هي لحظة الاتصال للشكر على ما انعم، وان الحمد له والثناء عليه وحده.

## الهاجس اليهودي

كان اليهود من سكان المدنية وخارجها ينظرون بقلق الى مايجري في يثرب، وهم يرون محمداً ذلك الرجل الشريد الذي وصل المدينة على قدر زعيماً كبيراً وقائداً فذاً يقود اتباعه نحو مستقبل مشرق.

بدأ اليهود مكرهم لتمزيق الصفاء الروحي والتشويش على عقائد المجتمع الجديد، فشنوا حرباً فكرية لاهوادة فيها.

ان الطبيعة اليهودية طبيعة معقدة لها قابلية عـجيبة عـلى التـلوّن بمختلف الالوان والظهور في عدّة اشكال، فيما يظل الجوهر فاسداً لا أمل فيه؛ ففي تلك الظروف تظاهر بعض احبارهم باعتناق الاسلام من اجل التغلغل في المجتمع الاسلامي وتخريبه من الداخل، كما وظفوا المنافقين وهم تلك الشريحة من سكان يثرب الذين وجدوا انـفسهم يعتنقون الاسلام لاسباب بعيدة كل البعد عن روح الايمان وطمانينة القلب.

وفي تلك الفترة طرح اليهود مباشرة او من وراء حجاب اسئلة عن

طبيعة الخالق، وعن الروح.

وكان وحي السماء يؤسس العقيدة الجديدة السامية عما لحق الرسالات الغابرة من زيف وتحريف.

وراح المجتمع الوليد يردد:

ـ قل هو الله احد. الله الصمد.

ـ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي.

وكان من المفروض ان يرسم الموقف اليهودي الرافض للدين الجديد علامة استفهام حول الاسلام، نظراً للثقل الفكري والديني الذي يتمتعون به، غير ان التاريخ الحافل بالوثائق والذي يدين اليهود ويشهد بفساد عقائدهم وانحرافهم وقتلهم عشرات الانبياء، والاسلوب القرآني في مواجهتهم قد ادى الى تهميشهم، فما لبث المجتمع الاسلامي ان راح ينظر اليهم بعين الشك والريبة.

ولقد بلغ التعنت اليهودي ذروته عندما سادت روح من الخوف بسطاء اليهود من الذين كانوا يودّون اعتناق الاسلام من كل قلوبهم ولكنهم كانوا يخشون خطر الاغتيال.

وفي تلك الظروف الصعبة بين مكر اليهود وخبث المنافقين، أثبت المجتمع الاسلامي صلابته واعلن هويته واضحة جلية، وهكذا مرّ عام.

كان من الطبيعي ان يفكر زعـماء قـريش ومـن خـلال حسّـهم التجاري بشن حرب اقتصادية على يثرب واستخدام اسلوب التجويع لتركيع خصمهم.

ومن هنا حاصرت مكّة طرق القوافل المتجهة نحو الشمال وصار من المتعذر وصول الاغذية الى المدينة المنورة، وبالرغم من خصوبة الاراضـي المـيحطة بـالمدينة وامـتداد الحـقول والمـزارع فـيها الى مساحات شاسعة، إلا ان الحصار قد فعل فعله فارتفعت اسعار الغذاء، وقد لعب اليهود وهم خبراء في التفكير الاقتصادي دوراً في التلاعب بالاسعار من خلال الاحتكار؛ غير ان المجتمع الاسلامي واجه ذلك بروح من الصبر والتحمل، وكانت استجابتهم لهذا التحدي ايـجابية، فاصبحت لهم سوقهم الاسلامية الخاصة بهم.

ولم يكن للنبي(ص) ان يقف مكتوف الايدي ازاء مايجري حوله من تآمر واساليب غاية في الدناءة والخبث، فكان ينتظر امر السماء.

## آية السيف

وهبط جبريل يحمل آية السيف:

ـ «أُذن للذين يقاتَلون بانهم ظُلموا وإن الله علىٰ نـصرهم لقـدير. الذين اخرجوا من ديارهم بغير، الّا أن يقولوا ربنا الله، ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يـذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز ».

وبدأت مصانع السلاح بالعمل، وتألق الحصان العربي مادام منطلقاً للدفاع ونشر الاسلام و «الخيل معقود تحت نواصيها الخير»[١].

لم يكن المشركون في مكة الذين اعتادوا اساليب ظـلم غـيرهم والتنكيل بهم ان يفهموا لغة غير لغة القوّة، كانوا عدوانيين حتى النخاع لايرون شيئاً سوى انفسهم ومصالحهم، ولقد بـدأوا عـدوانـهم عـلى الاسلام منذ الايام الاولىٰ وكانوا يهدفون الى سحق الدين الجديد بأي ثمن.

لقد عانى المسلمون الكثير من التعذيب والقهر والتشريد، حتى اذا فتح الله عليهم باب الهجرة الى وطن آمن، انتهجت قـريش اسـلوب الحصار والحروب الاقتصادية واسـتخدمت سـلاح الغـذاء لتـجويع الخصم وتركيعه.

لم يكن رسول الله بغافل عمّا يمكرون ولكنه كان يواجه كل ذلك بالصبر والتحمل حتى اذا بلغ السـيل الزبـى، كـان له مـوقف آخـر

(١) كلمة مأثورة عن النبي (ص).

فوجئت به قريش والجزيرة باسرها، فلقد كشفت الايام عبقرية حربية كامنة في اعماق رجل تجاوز الخمسين عاماً بسنوات خمس.

بلغت الفترة التي اعقبت هجرة الرسول(ص) وحتى اندلاع معركة بدر الكبرى تسعة عشر شهراً تقريباً، لم يندلع خلالها اي صراع مسلح بين مكة والمدينة وكانت الاعمال العسكرية لاتعدو خلال تلك الفترة دوريات للاستطلاع، واستكشاف الطرق المحيطة وتعرّف المسالك التي تؤدي الى مكة، ومحاولة كسب القبائل في تلك المناطق الحساسة من خلال دعوتها الى الاسلام، او التحالف معها على الأقل.

وكان خروج الدوريات المسلحة بين الفترة والاخرى اشعاراً للجميع واستعراضاً لقوة المسلمين العسكرية.

ولقد حول الرسول(ص) بعبقريته المدينة المنورة الى قاعدة قوية يحسب لها ألف حساب.

وفي المقابل اثبت زعماء مكّة المشركون غباءهم بانتهاجهم اسلوب الحصار الاقتصادي الذي فشل مرّة في داخل مكة يوم كان المسلمون قلة قليلة وذلك خلال أيام المقاطعة المريرة في شعب ابي طالب.

وها هم ينتهجون ذات الاسلوب مع المسلمين في مدينة يثرب التي تعتمد في اقتصادها على الزراعة.

وهكذا انقلب السحر على الساحر، وحوّل النبي(ص) سلاح الحصار نحو نحورهم، فاستيقظوا من احلامهم مذعورين.

## الطريق الى آبار بدر

لابد لقوافل التجارة التي تغادر مكة نحو الشام ان تسلك السهول الساحلية التي تمرّ قرب المدينة في عرض يمتد الى اكثر من كيلو مئة كيلو متر تقريباً، وهذا ما يمكّن المسلمين من تهديد هذه التجارية.الطريق

لقد بنى المكّيون امجادهم على التجارة، في رحلات كبرى تتألف في بعض الاحيان من ألف بعير.

ويمكن الاشارة الى ثماني دوريات استطلاعية تخللت تلك الفترة، لم ينشب خلالها اي صدام مسلح، باستثناء آخرها والتي قادها عبدالله بن جحش في شهر رجب من السنة الثانية للهجرة، وقد ادى الاصطدام بين الدورية والقافلة في وادي اليمانية بين مكة والمدينة والطائف الى حادث قتل، تأثر الرسول(ص) له لوقوعه في رجب احد الاشهر الحرم.

استغلت قريش هذا الجانب ابشع استغلال، وراح تشنع بالنبي والمسلمين لانتهاكهم حرمة الشهر الحرام.

غير ان السماء كان لها رأي آخر، فقد هبط الوحي بالآية الكريمة:

ـ «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج اهله منه اكبر عند الله، والفتنة اكبر من القتل.. »[1].

وكانت هذه الآية بمثابة اعلان عن بدء فصل جديد، ادرك المشركون فيه عزم المسلمين على معاقبتهم في اول فرصة.

وصلت انباء عن مغادرة قافلة تجارية ضخمة مدينة غزة باتجاه مكة.

كانت القافلة تتألف من ١٠٠٠ بعير محمّلة بالقمح، والعطور والبضائع الاخرى.

وكان من ميزات هذه الرحلة التجارية انها تضم رؤوس الاموال الكبيرة وهي بذلك تهم زعماء قريش البارزين، كما ان تولّي ابي سفيان لقيادتها اكسبها حساسية بالغة، فابو سفيان من اعداء اسلام الالداء.

قرر النبي(ص) تأديب قريش من خلال التعرض لهذه القافلة الضخمة، وعلى هذا الاساس عبّأ قوّات محدودة بلغ تعدادها ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً.

---

(١) البقرة: ٢١٧.

بعث النبي(ص) دورية استطلاع لجمع معلومات عن مسار القافلة وترصّد اخبار قريش في مكة، كما قسم جيشه الى كتيبتين؛ كتيبة تضم المهاجرين ورايتها مع علي بن ابي طالب، وكتيبة الانصار ورايتها مع سعد بن معاذ.

سلكت القوات الاسلامية طريق القوافل التجارية حيث يبلغ طوله حوالي «١٦٠» كم ووزع النبي (ص) وسائط النقل المؤلفة من سبعين بعيراً على جنوده، فتحتم ان يشترك كل ثلاثة مقاتلين على اعتقاب بعير واحد، وكان نصيب الرسول مع علي بن ابي طالب ومرثد بن ابي مرثد الغنوي.

وعندما اعرب كل من علي ومرثد عن استعدادهما على السير مشياً قال النبي(ص):

ـ ما انتما باقوى مني ولا انا باغنى عنكما عن الاجر.

وكان منظر الرسول وهو يطوي المسافات مشياً أسوة بغيره قد ملأ قلوب جنوده اجلالاً وتفانياً وحبّاً.

## الانباء المثيرة

هطلت الامطار .. هطلت بغزارة فسالت اودية بقدر.. وقف النبي(ص).. راح ينظر الى السماء والسحب تسح ماتسح من دموعها

الممال.. رفع يديه الى عوالم لانهائية وتضرع الى الله واهب الحياة.

ـ اللهم نصرك الذي وعدت.

كان الوجوم يسيطر على الوجوه فالانباء كانت مثيرة.. لقد خرجوا لمواجهة قافلة تجارية... وهاهي الصحراء تحمل اليهم نبأ عن زحف قريش بجيش كبير.

كان ابو سفيان يقود القافلة بحذر وقد شعر بشيء ما عندما وصل المناطق المتاخمة ليثرب، وفي مكان قرب آبار بدر عثر على روث للابل، وعندما فتته ورأى فيه نوى تمر صرخ بذعر:

ـ هذه والله علائف يثرب.

بادر ابو سفيان الى ارسال صيحة استغاثة الى مكة فيما غيّر مسار القافلة باتجاه البحر الاحمر، وهكذا ابتعدت عن آبار بدر ممعنة بالفرار، وهكذا افلتت القافلة.

كان زحف قريش يمثل اول تحدٍّ كبير يواجهه المسلمون، وكان عليهم ان يتخذوا قراراً ما.

أطلع النبي(ص) اصحابه على مجريات الاحداث وهتف بقواته:

ـ اشيروا عليّ ايها الناس.

كان الموقف يزداد حراجة لحظة بعد اخرى.

نهض عمر وقال:

ـ يارسول الله! انها قريش وعزّها ما ذلّت منذ عزّت ولا آمنت منذ كفرت، والله لتقاتلنك، فاتهب لذلك اهبته وأعدّ لذلك عدّته.

وراح المسلمون ينظر بعضهم الى بعض، وفي تلك اللحظات نهض المقداد بن عمرو وهتف بحماس:

ـ يارسول الله، امض لما امرك الله فنحن معك، والله لانقول كما قال بنو اسرائيل لموسى: اذهب انت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون.. بل نقول اذهب انت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون.

وأشرق وجه الرسول(ص) بابتسامة رضا.

كان المقداد يمثل موقف المهاجرين، فأراد النبي(ص) ان يعرف موقف الانصار، فهتف مرّة اخرى:

ـ اشيروا عليّ أيها الناس.

نهض سعد بن معاذ وقد أدرك رغبة النبي(ص):

ـ كأنك تريدنا يارسول الله ؟

ـ اجل.

ـ لقد آمنا بك وصدّقناك وشهدنا ان ماجئت به هو الحق، وأعطيناك العهد والميثاق، فامض يارسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر[1] فخضته لخضناه معك ماتخلّف عنا رجل

---

(١) البحر الاحمر.

واحد.. انا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء.

وقد أثارت هذه الكلمات الثائرة الحماس في نفوس المقاتلين ومدّتهم بالعزم والقوة والمواجهة.

وهكذا أصدر الرسول أمره باستئناف المسير:

ـ سيروا على بركة الله، وابشروا فإنّ الله وعدني إحدى الطائفتين.

وغادر النبي(ص) وادي ذفرات، سالكاً المنعطفات قريباً من الكثبان الرملية في منطقة حنان، واستمر يطوي المسافات الى ان وصل آبار بدر، وقام بنفسه بجولة استطلاع في المناطق المحيطة فصادف شيخاً وأدرك من خلال الحوار معه ان قريش قد تصل بين لحظة وأخرى الكثبان الرملية في أقصى الوادي من آبار بدر.

وفي غمرة تلك الليلة بعث النبي(ص) أيضاً دورية استطلاع بقيادة علي بن ابي طالب(ع)، التي تمكنت من إلقاء القبض على شخصين من سقاة جيش قريش فساقتهما الى معسكر المسلمين.

سأل النبي(ص) عن عدد قوات قريش:

ـ كم القوم؟

ـ كثير.

ـ ماعدّتهم؟

ـ لاندري.

ـ كم ينحرون في اليوم؟

ـ يوماً تسعاً ويوماً عشراً.

التفت النبي الى اصحابه وقال:

ـ القوم ما بين التسعمئة والألف.

ولقد صدق حدس النبي(ص) عندما تقدمت قوات قريش، وظهر انها تتألف من تسعمئة وخمسين مقاتلاً.

تمركزت قريش في ثنايا التلال القريبة من الوادي، بينما انتخب المسلمون الجانب الشرقي منه.

وفي فجر يوم ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة وقد بدت المعركة وشيكة، هبط جبريل يحمل دعوة السماء الى السلام.

وكان هناك من يصغي الى هذا النداء، لولا غرور ابي جهل واصراره على الحرب باي ثمن.

ولقد تجلّت عبقرية الرسول العسكرية في هذه المعركة من خلال قيامه بعدة خطوات من قبيل جمع المعلومات عن العدو، وتغطية تحرّكه بالسرّية الكاملة، وانتهاجه اسلوباً مبتكراً في التكتيك القتالي يعتمد ترتيب الصفوف وهو اسلوب لم يكن معروفاً من قبل ، اضافة الى عامل آخر يمثل دون شك السلاح الاقوى في المعركة وهو الايمان العميق والعقيدة.

اشتعلت المعركة في الضباح الباكر واستمرت حتى المساء وخاض المسلمون مقاومة بطولية حسمت فيما بعد الى جانبهم نصراً ساحقاً لتشهد عيون بدر اول معركة حاسمة في تاريخ الاسلام لتصبح فيما بعد فاتحة لسلسلة من الانتصارات الباهرة وهكذا عاد النبي(ص) الى المدينة تخفق فوق هامته راية «العقاب» فيما ظلت اصداء ماحدث قرب آبار بدر تتردد في الجزيرة العربية.

لقد شهد ذلك العام ايضاً اربعة احداث اخرى.

ـ تغير القبلة وتحولها من بيت المقدس الى الكعبة، وقد استاء اليهود من جرّاء ذلك بشدة.

ـ تشريع الصوم في شهر رمضان المبارك، كما اصبحت للمجتمع الاسلامي اعياده الخاصة في عيدي الفطر والاضحىٰ.

ـ اقتران علي بن ابي طالب (ع) بفاطمة الزهراء كريمة النبي(ص).

ـ تغيّر مسار القوافل التجارية لقريش وتحولها من طريق الشام الى طريق العراق اثر معركة بدر.

ولقد تنفس المسلمون الصعداء خاصّة الذين مايزالون في مكّة اثر مصرع اشدّ اعداء الاسلام قسوة كأبي جهل وأمية بن خلف، كما لقي ابو لهب حتفه كمداً بعد سماعه نتائج ماحدث في «بدر».

لا يحتاج المرء الى جهد كبير لكي يتعرف طبيعة اليهود، وموقف القبائل اليهودية ازاء الاسلام، فلقد برز حقدهم الاعمىٰ منذ الايام الاولى من وصول النبي(ص) المدينة المنورة.

لقد حاول الرسول(ص) تجنب الاصطدام بهم ما امكن، غير انهم فسروا ذلك نوعاً من الخوف، فراحوا يحيكون المؤمرات ضد الاسلام مستهينين بالمسلمين حتى بعد انتصارهم في معركة بدر.

وكان يهود بني قينقاع اول من فجر الموقف ضد المسلمين اذ صعدوا من استفزازهم وراحوا يسخرون من رسول الله واصحابه.

وقد لعبت ثرواتهم الطائلة وحصونهم الحربية المنيعة في نفخ روح الغرور في نفوسهم.

واذا كان لكل اشتعال شرارة فقد وقع حادث في السوق اليهودية فجر الموقف بين اليهود والمسلمين.

كان الوقت ضحى وسوق الصاغة يزخر بالباعة والمارّة؛ وصادف ان جاءت امرأة مسلمة تريد بيع حليها الذهبية فدخلت احد دكاكينهم.

واستيقظت كوامن الطبيعة اليهودية فتقاطر على الدكان بعض اليهود

، راحوا يستفزون المرأة.

واذا كان اليهود قد ورثوا حبّ الذهب منذ ان صنع السامري عجلاً ذهبياً له خوار، فانهم ايضاً قد توارثوا صفات اخلاقية غاية في الانحطاط، فالخسة والغدر والدناءة باتت من خصائصهم التي تنهض عليها شخصيتهم المعقدة.

وهكذا سولت لليهودي نفسه، فاستغل انشغال المرأة وثبت طرف ثوبها بشوكة الى ظهرها، عندما ارادت المرأة المسلمة الانصراف ونهضت سقط الرداء، كان اليهود ينتظرون هذه اللحظة فانفجروا ضاحكين.

وصرخت المرأة:

ـ يا للمسلمين.

وهب مسلم غيور للدفاع عن الشرف، فهوى بسيفه على الصائغ، واحاط اليهود بالمسلم وقتلوه.. وهكذا اشتعلت الفتنة.

وبالرغم من كل ذلك اراد النبي تجاوز الموضوع، فذهب بنفسه الى سوق اليهود، واجرى معهم حواراً هدائاً ذكّرهم فيه بالمعاهدة المبرمة بين الطرفين، وان البغي والعدوان لن يجني سوى ثماراً مرّة، كما حصل لقريش يوم بدر قبل أقل من شهر.

ولكن اليهود الذين استبد بهم الغرور سخروا من هذه النصائح

قائلين:

ـ لايغرّنك يامحمد انك لقيت قوماً لاعلم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة مكنتك من رقابهم، انّا والله لئن حاربناك لسوف ترى منا ما لم تره من غيرنا.

وفي هذه المناسبة هبط الوحي السماوي بهذه الآيات:

ـ «قل للذين كفروا ستُغلبون وتُحشرون الى جهنم وبئس المهاد. قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله واخرى كافرة يرونهم مثلهم رأي العين، والله يؤيد بنصره من يشاء ان في ذلك لعبرة لأولي الالباب»[1].

وأمام هذا الغرور الاحمق قرر النبي(ص) تأديبهم فزحف بقواته، فيما لاذ اليهود بحصونهم المنيعة.

فرض المسلمون حصارً شديداً استمر اسبوعين، وكان الشرط الوحيد لفك الحصار الاستسلام دون قيد او شرط.

واخيراً استسلم بنو قينقاع، وفتحوا ابواب الحصون.

اصدر النبي(ص) عفواً عاماً، شرط الجلاء عن المدينة، وهكذا غادرت هذه القبائل الشريرة يثرب مخلّفة وراءها كميات هائلة من الاسلحة وادوات الصياغة، وحطّوا رحالهم في وادي القرىٰ مدّة من

---

(١) آل عمران: ١٢ـ١٣.

الزمن ثم اتجهوا صوب «اذرعات»[1] في الشام

## هواجس الثأر

ظلت المناحات في مكّة تتصاعد مدّة عام، تؤججها احقاد الثأر، وتحرق بدخانها العيون، برزت هند زوجة ابي سفيان لتمثل نفسية حاقدة لاتعرف سوى الانتقام بأي ثمن، ولم يكن موقف ابي سفيان الذي أقسم على الثأر من الاسلام إلّا مجرد صدى لما يموج في اعماق تلك المرأة.

ومنذ معركة بدر ومكة تغلي بالحقد وتموج بالحمية حمية الجاهلية، وكان الهدف الاكبر الثأر في اول فرصة، وقد بيّت المشركون الذكرى الاولى لبدر موعداً للتحرك.

وخلال هذه الفترة التي تبلغ عاماً كاملاً وقعت حوادث لها دلالتها.

فقد تم تصفية كعب بن الاشرف اليهودي الذي ما انفك يهجو سيدنا محمداً(ص) ويحرض قريشاً على طلب الثأر، وبلغ استهتاره ان راح يشبب بنساء المسلمين، وكان لتصفيته صدى كبير فقد انكفأ اليهود على انفسهم مذعورين.

ووقعت بعض الاعمال والتحركات العسكرية، حيث قاد

---

(١) مدينة درعا السورية حالياً.

النبي(ص) بنفسه دورية قتال الى مضارب «بني سليم» و «غطفان»، وهما قبيلتان كبيرتان تنتمي الاولى الى العدنانيين، فيما تنتسب الاخرى الى القحطانيين، وقد استوطنتا هضاب نجد في المناطق المتاخمة للمدينة المنورة، وتأتي اهميتها كونها واقعة على طريق التجارة بين مكّة والشام، وكانت الانباء قد تضافرت على تشكيل اتحاد بين القبيلتين ونوايا مبيتة لاجتياح المدينة على حين غفلة، ولم تصطدم الدورية المؤلفة من مئة فارس اصطداماً مباشراً بالقبيلتين اللتين فضلتا الفرار تاركتين وراءهما ٥٠٠ بعير.

وفي تلك المدّة ايضاً اغار ابو سفيان على اطراف المدينة في قوة مؤلفة من مئتي فارس، وقد قدم اليهود عوناً معلوماتياً عن نقاط الضعف في خطوط المدينة الدفاعية، فاستغل ابو سفيان الظلام، ودفع بمفرزة من فرسانه الى اطراف المدينة فأحرقت منزلين ومجموعة من اشجار النخيل كما قتلت مسلمَين.

وعندما افاق المسلمون على هذا النبأ، اسرع النبي(ص) فجهز قوة من رجاله لمطاردة المغيرين، غير ان ابا سفيان تمكن من الافلات، لأن حملته مؤلفة من الفرسان فقط، كما انهم راحوا يتخففون من مؤنهم واثقالهم بالقاء الطعام اثناء فرارهم، حيث عثر المسلمون في

لمر بن المطاردة على كميات كبيرة من «السويق»[1] حيث حملت الغزوة هذا الاسم.

وتبقىٰ سرية زيد بن حارثة اهم عمل عسكري قبل نشوب معركة احد.

كان زعماء قريش وبعد معركة بذر قد خاضوا جدلاً واسعاً حول الطريق البديل للتجارة مع الشام، فقد اسفرت بدر عن نتيجة مفادها ان الطريق الغربية التي تسلكها قوافل قريش التجارية الى الشام لم تعد امنة وان عليهم سلوك الطريق الاخر وبالتحديد الطريق الشرقية، التي تتخلل هضاب نجد وبالرغم من صعوبة هذه الطريق وجهل تجار قريش الكامل بها، فقد عدّت افضل من الطريق السابقة باعتبارها طريقاً آمنة.

وأفادت انباء الصحراء عن تجهيز قافلة تجارية بقيادة صفوان بن امية ومعاونة ابي سفيان، وان دليل القافلة الجديد رجل نجدي يدعى فرات بن حيان.

جهز النبي(ص) حملة عسكرية قوامها مئة مقاتل واسند قيادتها الى زيد بن حارثة.

وفي احد وديان نجد دهم المسلمون القافلة وهي ترد الماء، ولم

---

(١) مادة غذائية تعدّ بتحميص القمح وخلطه بالعسل والسمن والحليب.

يكن امام ابي سفيان وصاحبه إلّا الفرار، فاستولى المسلمون على القافلة دون مقاومة، ووقع في الاسر ثلاثة من حراسها كان الدليل احدهم.

وهكذا تتابعت الاحداث حتى اذا اطل شهر شوال افادت الانباء عن تجهيز قريش لجيش كبير قوامه ثلاثة آلاف مقاتل.

ولم تمض خمسة أيام من شوال حتى كان جيش المشركين يغادر مكة في تجهيز قتالي غاية في التنظيم، ولاننسى ان قريش قد وفرت ارباح القافلة التجارية التي افلت بها ابو سفيان في بدر لتجهيز جيش الثأر اذا صح التعبير، وكانت مبالغ طائلة بلغت خمسين ألف دينار آنذاك.

ولعل في تواجد النبي(ص) في قرية قباء ابان تلك الفترة يشير الى تحسبه للطوارئ.

وبينما كان رسول الله يتأمل تموجات الصحراء، اذا بفارس يبدو من بعيد يحمل انباء مكة المثيرة[١].

---

(١) كان العباس عم النبي قد بعث الى النبي رسالة حول تفاصيل الحملة وذلك قبل مغادرته مكة بمعية الجيش.

في الرابع عشر من شوال في السنة الثالثة من الهجرة شهد مسجد النبي(ص) مجلساً عسكرياً لمناقشة الوضع الخطير.

وكان من رأي النبي(ص) ان يتحصّن المسلمون في المدينة لارغام قريش على مهاجمتها، وبهذا يمكن للمدافعين استخدام اساليب حرب الشوارع، في مكان يجهله العدو المهاجم، اضافة الى الاستفادة من المرأة المسلمة في مضاعفة المجهود الحربي، وقد طرح الرسول(ص) رأيه بهدوء قائلاً بأدبه العظيم:

ـ فان رأيتم ان تقيموا في المدينة وتدعوهم حيث نزلوا. فان أقاموا أقاموا بشرّ مقام، وان هم دخلوا علينا قاتلناهم.

غير ان الشباب المتحمس للقتال كان يفضل مواجهة الغزاة خارج المدينة، خاصّة اولئك الذين لم يذوقوا حلاوة النصر في بدر.

وعندما لاحظ النبي(ص) ان الاغلبية تفضل المواجهة خارج يثرب، نهض فدخل منزله وارتدى زيه الحربي.

وقد شعر المسلمون انهم بذلك قد ارغموا النبي(ص) على رأي، فاعتذورا له وتركوا له اتخاذ القرار. وعندها قال النبي(ص):

ـماينبغي لنبي اذا لبس «لامته» ان يضعها حتى يحكم الله.

وقد بدا الوضع متأزماً سيما وان رغبة المنافقين كانت في عدم مغادرة المدينة، ولعل في إلحاحهم على البقاء مايفسر رغبة النبي في تبني الرأي الذي يدعو الى المواجهة خارج المدينة. وهكذا تحركت كتائب الجيش الاسلامي التي بلغ تعدادها الف مقاتل.

وفي ثنيات الوداع، شاهد النبي كتيبة منفردة عن الجيش فسأل عنها فابلغوه بانها كتية يهودية ترغب في مشاركة حليفها عبد الله بن ابي القتال، غير ان النبي رفض ذلك بشدة قائلاً:

ـ لانقاتل المشركين بالمشركين.

وفي منطقة الشوط حيث البساتين الواقعة بين جبل احد والمدينة حدث تمرّد خطير اذ قرر عبد الله بن ابي ومعه ثلاثمئة من المقاتلين العودة الى المدينة دون سبب واضح، ومهما كانت البواعث فإن الهدف من ذلك كان احداث بلبلة في صفوف الجيش الاسلامي وهو على وشك الاشتباك.

وقد رأى فريق من الصحابة تأديب المتمرّدين، إلا ان النبي(ص) رفض ذلك.

واصل النبي تقدمه بسبعمئة مقاتل لمواجهة جيش مؤلف من ثلاثة آلاف جندي مجهز بافضل الاسلحة.

كان جيش المشركين قد تمركز في وادي قناة لقطع الطريق على

...م الجيش الاسلامي..

...اد النبي قواته عبر حرّة[1] بني حارثة متجهاً شمالاً صوب جبل ا...، وجاعلاً جيش المشركين غرباً، حتى وصل مدخل الوادي ...سكر بقوّاته تاركاً هضاب الجبل خلفه.

القى النبي(ص) نظرة تأمل على طبيعة الارض وميدان المعركة ...رأى في جبل «عينين» موقعاً استراتيجياً من الناحية الحربية يمكن الاستفادة منه في حماية مؤخرة الجيش الاسلامي من حركة التفاف ... يقوم بها العدو، ولهذا حرص النبي على احتلال الجبل.

انتخب النبي(ص) خمسين من امهر الرماة وامرهم بالمرابطة فوق الجبل الذي يدعى اليوم بجبل الرماة وهو على مسافة مئة وخمسين ...را من مقر قيادة الجيش الاسلامي غرباً على حافة الوادي الجنوبية.

اصدر النبي تعليماته قائلاً:

ـ انضحو الخيل بالنبل لايأتونا من خلفنا...

ـ احموا لنا ظهورنا لايأتونا من خلفنا وارشقوهم بالنبل فان الخيل لا تقدم على النبل، انا لانزال غالبين ما ثبتّم مكانكم.

وأردف الرسول(ص) مؤكداً اهمية الموقع استراتيجياً.

---

(١) الحرّة ارض حجارتها سوداء نخرة كما لو انها مشوية بالنار، والحرّات تحيط المدينة ...ريبا.

ـ ان رأيتمونا يتخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم حتى ارسل اليكم، وان رأيتمونا ظهرنا على القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا مكانكم حتى ارسل اليكم، وان رأيتمونا غنمنا فلا تشركونا، وان رأيتمونا نقتل فلاتغيثونا، ولاتدافعوا عنا.

بدأ المشركون عملياتهم بهجوم قوة من المشاة تساندها كوكبة الفرسان من مستهدفة الجناح الايسر من جيش الاسلام، وقد ارتدّ المهاجمون على اعقابهم بعد ان تعرّضوا الى مقاومة باسلة، فقد اشترك الرماة في جبل عينين وبعض المتمركزين في سفوح جبل احد، والمشاة بصدّ الهجوم.

عاود المهاجمون الكرّة ثلاث مرات وكانوا يخفقون في كلّ مرّة.

وفي تلك اللحظات الحاسمة اصدر النبي اوامره بالهجوم المعاكس فاندفع ثقل الجيش الاسلامي باتجاه لواء المشركين بغية تحطيم معنوياتهم، وقد نجحت الخطة، اذ سرعان ما سقط اللواء بعد معارك ضارية، وبدأت جبهة المشركين تتزلزل تحت وطأة الهجمات الاسلامية.

وهكذا دبّت الهزيمة في صفوفهم، وفرّت هند ومعها الجواري اللاتي جئن لتحريض المشركين، بعد ان رمين بالطبول والدفوف، واصبح همّ الجميع النجاة.

وفوق جبل عينين وعلى سفوحه، بدأ صراع من نوع آخر، صراع نفسي رهيب، فالرماة الذين كانوا يراقبون سير المعركة قد شهدوا انتصار اخوانهم، وها هم يطاردون فلول المشركين في بطن الوادي ويجمعون الغنائم فانبعثت في الاعماق حمى الغنيمة، وترك اغلبهم مواقعه للحصول على مايمكن الحصول عليه من الاسلاب، وهكذا تجسدت بوضوح تام مقولة «اكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع»[1]، وبالرغم من صيحات قائد الرماة وتذكيره لهم بوصايا النبي إلا ان النفوس التي استولى عليها الطمع قد برّرت لهم عدم جدوى المرابطة في الجبل سيما وان النصر بات اكيداً.

وفي المعسكر الآخر كان خالد بن الوليد قائد سلاح الفرسان ينتظر مثل هذه الفرصة، فدفع بقوّاته نحو جبل عينين ليسحق ماتبقى من مفرزة الرماة ويفاجئ الجيش الاسلامي بهجوم كاسح.

وادرك المشركون ان الفرسان قد نفذوا حركة التفاف ناجحة فانقلبوا نحو المسلمين وقاموا على الفور بهجوم معاكس، وارتفع لواء المشركين مرّة اخرى وتغيّر بذلك الموقف جذرياً.

ففقد الجيش الاسلامي تنظيمه تماماً وتضعضعت صفوفهم، فالقوا مافي ايديهم من الغنائم واصبح همهم الوحيد الخلاص من الكماشة

---

(١) كلمة مأثورة للامام علي بن ابي طالب .

التي سقطوا فيها.

وفي غمرة الفوضى انتشرت شائعة عن مصرع النبي(ص) فعمت الفوضى ودبّت الهزيمة.

ثبت النبي (ص) في مقرّ قيادته ومعه اربعة عشر مقاتلاً فقط وراح يقاتل ببسالة قلّ نظيرها في التاريخ، وعلت هتافاته: انا رسول الله هلموا اليّ. وكان لهذا الهتاف الاثر الكبير في تجمع بعض قوّاته فراح يقودهم صوب مرتفعات احد في عملية انسحاب موفقة، فأنقذ النبي بذلك ٩٠٪ من جنوده من خطر الابادة.

## الدرس الكبير

لقد تعلّم المسلمون في جبل احد اعظم درس في الطاعة، وأيقنوا جميعاً ان طاعة الرسول تعني النصر، وان معصيته لاتعني شيئاً سوى الهزيمة والفشل والاخفاق.

في (أُحد) الذي قال عنه رسول الله(ص) «جبل يحبّنا ونحبه» تجلّت عذابات الانبياء، وصبرهم ومقاومتهم. لقد استهدف المشركون قتل النبي، وتمركزت هجماتهم العنيفة في المنطقة التي يقع فيها مقرّ قيادته، فيما تشتت قوات المسلمين وفرّ بعضهم نحو المدينة وفكر البعض الآخر باجراء مفاوضات مع ابي سفيان لاستصدار عفو منه.

كما اثبت النبي(ص) عبقريته العسكرية فاستطاع بمهارة مدهشة تجميع قواته وانقاذها من الابادة.

وقف ابو سفيان في ادنى سفوح الجبل وصرخ :

ـ اعل هبل.

فجاء الجواب :

ـ الله اعلى واجل.

ـ لنا العزىٰ ولا عزّى لكم.

ـ الله مولانا ولا مولى لكم.

بالرغم من كل شيء فقد شهدت تلك البقعة من دنيا الله اعظم ملحمة انسانية عندما صمد رجال يعدّون بالاصابع حول الرسول وكان همهم حماية النبي بأي ثمن فراحوا يتساقطون قربه كالفراشات وكل يوصي صاحبه بالاستبسال، فلا معنىٰ للحياة بعد النبي(ص).

ان التاريخ ليذكر باجلال مواقف الكثيرين منهم وفي طليعتهم علي بن ابي طالب الذي راح يقاتل ببسالة حتى سُمع صوت جبريل يدوّي في السماء:

ـ لاسيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي.

كما يذكر بسالة الحمزة وابي دجانة الانصاري وسعد بن الربيع ومصعب بن عمير وغيرهم من الرجال الذين عاهدوا ربّهم فمنهم من

قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومابدلوا تبديلا.

لقد فعلت الجراح البليغة، والظمأ والاعياء الشديد ونـزف الدمـاء ومصرع الحمزة على ذلك النحو المؤسف فعلها المأساوي، فبدا وجه آخر الانبياء غيمة حزينة تمطر على هون.

وبالرغم من حراجة الظروف، فقد كـان هـاجس النـبي الوحـيد المدينة المنورة، فقد يفكر المشركون اجتياحها؛ من اجل هذا ارسل النبي بطل الاسلام علي بن ابي طالب ليراقب قوّات قريش عن كثب، وهل انهم يمتطون في تحرّكهم الأبل ام الخيل، فاذا ركبوا الخيل فمعنى ذلك انهم يريدون الاغارة على المدينة، اما اذا امتطوا الابـل فـانهم يفضلون الانسحاب الى مكة.

وعندما شاهدهم علي يمتطون الابل اطمأن النبي على الوضع في المدينة وقال بعزم فولاذي عجيب.

ـ والذي نفسي بيده لئن ارادوها (المدينة) لأناجزنهم.

## ردّ الاعتبار

طارت الاخبار الى المدينة عما حصل في جبل احد، فهب السكان ولاهم لهم سوى السؤال عن شخص واحد هو النبي، وسجّلوا بذلك اعظم آيات الوفاء والحب.

وبالرغم من الحزن العميق مما اصاب الجيش الاسلامي الذي فقد في معركته سبعين شهيداً فقد كانت هناك فرحة مكبوتة إثر سلامة النبي وعودته الى المدينة.

وباتت المدينة تلك الليلة في حالة طوارئ قصوى، فالرجال المسلحون يحرسون مداخها، فقد يفكر المشركون بالعودة لمهاجمتها في لحظة من لحظات الغرور، كما ألف الاوس والخزرج مفرزة لحماية المكان الذي يقيم فيه النبي(ص) وقد انبعثت في الاعماق ذكريات ما حصل في وادي العقبة في اول لقاء لهم مع النبي(ص).

وفي صبيحة اليوم التالي للمعركه اصدر النبي القائد(ص) أمراً بالاستعداد لمطاردة جيش قريش، وقد شملت الدعوة الذين اشتركوا في معركة الامس فقط.

تحركت كتائب الجيش الاسلامي من جديد وسط دهشة اليهود والمنافقين، الذين ذهلوا لحماس هذا الجيش لمطاردة العدو الذي هزمهم بالأمس.

عسكرت القوات الاسلامية في مكان يدعى حمراء الاسد.

وقد فوجئ جيش المشركين الذي عسكر هو الآخر في مكان يدعى الروحاء، وهو لايبعد عن حمراء الاسد؛ فوجئ بالنبأ الجديد، ويبدو ان بعض قادة الجيش في قريش قد لاموا أبا سفيان لإحجامه

عن اجتياح المدينة، ولهذا عسكروا في الروحاء لتداول الرأي. وفي غمرة الجدل داهمتهم انباء الزحف الاسلامي.

كان ابو سفيان يدرك تماماً ان انتصارهم في احد يعود الى ترك الرماة مواقعهم في جبل عينين، ولهذا فضل عدم مواجهة المسلمين والاكتفاء بما حققوه، من نصر.

حاول ابوسفيان ارهاب المسلمين من خلال ارساله التهديدات ولكن الرسول(ص) تجاهل كل ذلك واعلن تحدّيه فظّل معسكراً في حمراء الاسد ثلاثة ايام، وكان المسلمون يوقدون النار ليلاً امعاناً في التحدي. وهكذا وجد ابو سفيان نفسه مرغماً على الانسحاب فيما اعاد المسلمون اعتبارهم وهيبتهم التي اهتزت بشدة قبل ايام.

وفي كل الاحوال كانت معركة احد درساً بليغاً تعلم المسلمون خلاله معنى الطاعة والانضباط، لأننا سنجد المسلمين فيما بعد لايمنون باية هزيمة على الاطلاق.

وفي هذا العام نزلت آية التحريم، وحطّم المؤمنون آنية الخمر في لحظة انتصار الارادة والايمان.

## محاولة الاغتيال

في العام الرابع الهجري وقعت سلسلة من الحوادث التي قد تبدو

من بعيد حوادث مستقلة غير ان التمعن في بواعثها واسبابها سيكشف من خيط كان يربط فيما بينهما لتسفر فيما بعد عن نتيجة ربماكانت الاقدار تحوكها من قبل.

بعث النبي (ص) اربعين رجلاً من اصحابه الى اهل نجد من اجل تعليمهم شريعة الاسلام، فغدرت بهم قبائل من بني سليم فاضطروا للقتال حتى النفس الاخير.

كما وقع حادث مؤسف آخر عندما بعث الرسول(ص) سبعة من اصحابه ايضاً الى القبائل الضاربة قريباً من مكة، وفي الطريق فوجئوا بكمين نصبته لهم قبائل «هذيل» فقتل رئيس البعثة مرثد بن ابي مرثد الغنوي وثلاثة من رجاله، وأُسر الباقون تمكن احدهم من الافلات، غير انه مات في الطريق متأثراً بجراحه، فيما بيع الاثنان الى قريش، فنفذت فيهما حكم الاعدام.

وبالطبع فان هذين الحدثين ينمّان عن استخفاف القبائل العربية بالمسلمين كنتيجة طبيعة لما حصل في «احد». فمن مجموع سبعة واربعين رجلاً لقوا مصرعهم في حادثتي غدر جبانتين لم ينج سوى شخص واحد وهو عمرو بن امية الضمري، وقد اقدم هذا الاخير بعد ان نجا من تلك المذبحة على الثأر من بني عامر فقتل من افرادها اثنين دون ان يعلم ان الرسول(ص) كان قد اعطى لهما عهداً.

ووفاء بالعهد قرر النبي دفع دية هذين الرجلين الى اهليهما، وهكذا بدأت الحوادث تأخذ منحى آخر؛ ذلك ان معاهدة سارية المفعول تلزم يهود «بني النضير» بمشاركة المسلمين فيدفع مثل هذه التعويضات، وهكذا توجه الرسول(ص) بنفسه ومعه وفد يضم كبار الشخصيات الاسلامية الى حصون بني النضير.

تظاهر اليهود بالترحيب بالوفد قائلين:

ـ نعم يا أبا القاسم نعينك على ما احببت.

وفي تلك اللحظات وبسبب الطبيعة اليهودية ولدت مؤامرة دنيئة.

كان النبي جالساً في ظلال الحصن ينتظر وفاء اليهود، غير ان هذه الطائفة من البشر التي تشرّبت الغدر جيلاً بعد جيل، قد استفزها حضور النبي وحيداً ففكروا باغتياله.

فبرقت العيون حقداً وتهامس المتآمرون فيما بينهم وكانت الفكرة الهاء النبي ورجاله ريثما يتسلق (بن جحاش) اسوار الحصن ويقوم بدحرجة رحى الطاحون، ثم دفعه الى حيث جلس النبي(ص)، وهكذا سوّلت لهم انفسهم.

وفاحت في الفضاء رائحة المؤامرة، وادرك النبي من وراء تلك النظرات ان الامور تجري بشكل غير طبيعي فغادر الحصون عائداً الى المدينة.

ومن هناك وجه النبي(ص) انذاراً بالجلاء عن المدينة، وامهلهم عشرة ايام:

ويبدو ان اليهود قد ذهلوا لهذه المفاجأة، وبدأوا على الفور استعداداتهم للرحيل؛ وهنا يتدخل المنافقون لتفجير الوضع، وذلك بتحريض اليهود على رفض الانذار واعدين اياهم بتقديم العون اذا اقتضى الأمر.

وهكذا رفض بنو النضير الانذار سيما وقد انضم اليهم بنو قريظة وبدأت الاستعدادات العسكرية في حفر الخنادق واقامة المتاريس ونقل الحجارة الى سطوح المنازل، وتخزين كميات كبيرة من الطعام تكفي لمدة عام.

وفي المدينة اعلن النبي حالة النفير العام واصدر أمراً بالزحف نحو معاقل الغدر.

اقام النبي مقرّ قيادته في مكان قريب من الحصون، فصب اليهود وابلاً من السهام مستهدفين خيمة القائد واستدعي «عزوك» احد رماة اليهود المشهورين لتحقيق احلامهم بتصفية النبي(ص). وبدأ هذا اليهودي بتوجيه السهام نحو الخيمة، وراحت سهامه تتساقط قريباً منها.

قرر المسلمين نقل مقر القيادة بعيداً عن مرمى السهام، ومن الجدير

ذكره ان عزوك هذا وقع فيما بعد في كمين نصبه له علي بن ابي طالب فقُتل وقتل معه افراده العشرة.

وانهارت مقاومة اليهود بعد عشرين يوماً من الحصار فارسلوا مندوبهم الى النبي للتفاوض بشان الجلاء.

وتم الاتفاق خلال المفاوضات على مايلي:

- جلاء يهود بني النضير عن يثرب جلاءً تاماً.

- تسليم كافة انواع الاسلحة.

- لليهود الحق فيما يمكنهم حمله من الاموال مهما كانت قيمتها او نوعها.

- يتعهد المسلمون لبني النضير بسلامة ارواحهم ما داموا في المناطق الخاضعة للنفوذ الاسلامي.

وبعد الاعلان عن الاتفاق شرع اليهود بتخريب بيوتهم وتحويلها الى انقاض وحملوا معهم اموالاً حتى ناءت بها ستمئة بعير، وارتدوا أفخر ثيابهم، وحاولوا تغطية هزيمتهم بضرب الدفوف ونفخ المزامير يتقدمهم حي بن اخطب وغيره من زعمائهم.

وبجلاء بني النضير لم يبق من اليهود سوى قبيلة بني قريظة. وبالطبع لم يف المنافقون بوعودهم ونزلت آيات السماء تفضحهم وتبارك نصر الاسلام.

ويبقى الشعور بالرعب الذي يعد نتيجة طبيعة للخيانة والغدر العامل الاساس في انهيار بني النضير وخروجهم المذلّ.

ـ «هو الذي اخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ماظننتم ان يخرجوا وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله، فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بايديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الابصار».

وبالطبع لم يعتبر المنافقون ولايهود بني قريظة لأننا سنجدهم يواصلون تآمرهم وغدرهم وقد بلغت الذروة في اضخم مؤامرة يهودية ضد الاسلام وذلك في العام الخامس الهجري.

ولاننسىٰ ان نشير الى ان العام الرابع الهجري شهد ميلاد الحسين بن علي السبط الثاني لسيدنا محمد(ص) بعد الحسن بن علي، وبهذا يتبلور بشكل واضح مفهوم أهل البيت(ع) الذي ضم اضافة الى النبي(ص)، ابنته وصهره وسبطيه.

## عام الحسم

تعدّ السنة الخامسة من الهجرة سنة للحسم، فقد واجه المسلمون اكبر تحدٍّ استهدف الاسلام من الجذور، وذلك عندما شهدت الجزيرة العربية اضخم تجمع قبلي لغزو المدينة، حيث لعب اليهود دوراً قذراً

في تحريض قبائل عربية عديدة واقناعها باجتياح المدينة.

وقد سبق هذه الحادثة وقائع عديدة، فعلى الصعيد التشريعي فرض الله سبحانه الحج على المسلمين ما استطاعوا اليه سبيلا، كما تم زواج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش بقضاء الهي، ثم حدث الطلاق، حيث اقدم النبي(ص) فيما بعد على الزواج من ابنة عمته هذه، في خطوة لتحطيم عرف جاهلي كان سائداً آنذاك.

## الاحزاب

ظل الصراع التقليدي بين قريش والمسلمين في مستواه، فيما نشهد تصاعد الحقد اليهودي ليتخذ اشكالاً خطيرة جداً، غير ان اليهود وحتى العام الخامس الهجري لم يتمكنوا من القيام بعمل حربي كبير، بل اقتصر نشاطهم على التآمر والدس ومحاولة تمزيق وحدة الصف الاسلامي، وذلك من خلال توظيف المنافقين لتحقيق مآربهم الدنيئة.

وبعد جلاء بني النظير عن المدينة توجه حي بن اخطب الى «خيبر» يحمل معه حقده وعقده النفسية تجاه الاسلام ورسوله.

ويمكن القول ان غزوة الخندق انما هي مؤامرة يهودية ولدت في حصون خيبر وان حي بن اخطب يعتبر العقل المدبّر لاضخم عملية عسكرية كادت ان تعصف بالاسلام.

في مطلع شهر شعبان في السنة الرابعة للهجرة اي بعد مرور اربعة اشهر على جلاء بني النضير، غادر وفد يهودي بزعامة حي بن اخطب حصون خيبر متجهاً الى مكّة لمناقشة فكرة الغزو.

وقد تحمست قريش لمخطط الغزو سيما وقد فكر له اليهود واسهموا في تمويله مع كونهم اصحاب كتاب سماوي مما يمنح المسألة بعداً دينياً، وقد بلغت سفالة الوفد ان ابا سفيان عندما سألهم قائلاً:

- يا معشر يهود انكم اهل كتاب واعلم بما اصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير ام دينه؟

فاجابوا بكل خسّة ووقاحة:

- بل دينكم خير من دينه، وانتم اولى بالحق منه.

لقد بلغ حقدهم ان فضلوا الوثنية على ديانة تدعو الى عبادة الاله الواحد الاحد.

غادر الوفد اليهودي مكة الى مضارب غطفان في بادية نجد للقاء عيينه بن حصن الفزاري زعيم اكبر تجمع قبلي في الجزيرة العربية.

وكان الفزاري هذا يتميز بالغلظة والجفاء اضافة الى حماقة، ورغم كل هذا فقد كان السيد المطاع في غطفان..

ولم يستغرق الوفد في اقناع زعيم غطفان بفكرة الغزو سيما وان

فكرة اجتياح المدينة ونهبها كانت حلماً لمعظم القبائل العـربية مـنذ مأساة أحد.

وأسفرت المفاوضات عن اتفاق يقضي بالتزام غطفان بتجنيد ستة آلاف محارب مقابل تقديم اليهود ثمن محصول خيبر من النخيل لسنة واحدة.

أبلغ الوفد زعماء مكّة بتفاصيل الاتفاق من اجـل التـنسيق بـين قوات الاحزاب؛ وعمّت قريش موجة من الفـرح المـمزوج بـالحقد والانتقام.

وهكذا اندمج الخبث اليهودي والحقد القريشي والاطماع الغطفانية ليسفر عن جيش كبير بلغ تعداده عشرة آلاف مقاتل.

كانت المعلومات التي حصل عليها النبي(ص) تؤكد بشكل جازم عن نية الاتحاد الثلاثي ـ إذا صح التعبير ـ في احتلاله المدينة فاتخذ الرسول(ص) اجراءات سريعة بعقد اجتماع عسكري ضم الشخصيات الاسلامية البارزة لمواجهة التحدي الجديد.

ولما كانت قوة الغزو ضخمة بشرياً فقد تقرّر التحصّن في المدينة نفسها.

كانت تضاريس الارض المحيطة بالمدينة تشير الى ان الاحزاب سوف يختارون شمال المدينة هدفاً للاجتياح؛ ولهذا تركز الاهـتمام

في هذه المنطقة لاتخاذها منطقة تحشّد دفاعية.

وفيما كان المسلمون في جدل حول خطة الدفاع طرح سلمان الفارسي الذي اعتنق الاسلام حديثاً فكرة الانقاذ التي تتلخص في حفر خندق يحول دون تقدم الغزاة في احتلال المدينة، وقد تحمس المسلمون لهذه الخطة وباركها النبي فكانت في طليعة الاستعدادات العسكرية لمواجهة الغزو، إن لم تكن محورها الرئيسي.

وهكذا بوشرت عمليات الحفر في مطلع شهر رمضان المبارك، وحمل المسلمون وسائل الحفر في اضخم عملية دفاعية تشهدها الجزيرة العربية لأول مرّة.

وكان على الجيش الاسلامي ان يحفر خندقاً بطول خمسة آلاف ذراع وبعرض تسعة اذرع وبعمق سبعة اذرع.

وكانت عمليات الحفر تمضي قدماً مدّة شهر كامل في ظروف شاقّة فقد كان الفصل شتاءً ورياح (كانون) شديدة البرودة، اضافة الى محاولات التخريب وتثبيط الهمم التي كان يقوم بها عادة المنافقون ومن ورائهم اليهود.

غير ان مشاركة النبي(ص) في اعمال الحفر قد ذلك كثيراً من الصعوبات وبعثت روح الحماس في نفوس المدافعين.

كما ان شهر رمضان حيث رحلة الجوع والظمأ المقدسة، قد

صنعت ارادة اصلب من الجبل واقوى من رياح كانون القارسة البرد.

ولاننسى ان نشير الى ذلك المشهد المؤثر يوم حملت فاطمة الزهراء طعاماً الى والدها العظيم وانطلقت به نحو الخندق، وكان عبارة عن رغيف خبز اعدّته بنفسها، وجلس النبي(ص) يتناول طعام الافطار وهو يتمتم شاكراً:

ـ والله ما دخل جوفي طعام منذ ثلاث.

وعادت فاطمة الى منزلها تبكي من اجله.. من اجل آخر الانبياء، حيث تتآمر القبائل العربية واليهود والذين في قلوبهم مرض لقتله واطفاء النور الذي جاء به.

وكانت عملية حفر الخندق تتزامن مع علمية اخرى هي جمع المحاصيل الزراعية خارج المدينة وادخالها لكي لايستفيد منها العدو؛ اضافة الى نقل النساء والاطفال وتجميعهم في الحصون والمواقع المنيعة الآمنة، والقيام باعمال الدورية اثناء الليل تحسباً للطوارئ.

انهى الجيش الاسلامي اعمال الحفر قبل ثلاثة ايام من وصول قوات العدوّ، واتخذوا مواقعهم قريباً من الخندق.

## الهاجس اليهودي

كانت خطة الغزو تقضي باندفاع جيوش الاحزاب من الشمال على

...ال ..وس؛ وفي نفس الوقت يقوم يهود بني قريظة وهم في حدود الا...، مقاتل بمفاجأة الجيش الاسلامي وطعنه في الظهر.

وبالرغم من وجود معاهدة بين المسلمين وبني قريظة تلزم الط...ين بالدفاع المشترك عن ا لمدينة، إلا ان النبي(ص) كان يدرك ان النفسية اليهودية نفسية معجونة بالخيانة والغدر، ولهذا اخذ بنظر الاعتبار قيام اليهود بضربة مفاجئة فاحتاط للأمر، فانتخب لحراسة المدينة مفرزتين وكلّفهما القيام باعمال الدورية حول منازل بني قريظة.

أحدقت جيوش الاحزاب بالمدينة من الشمال وكانت المفاجأة عندما رأى ابو سفيان ومعه مدبّر فكرة الغزو اليهودي حي بن اخطب سيناً عجيباً.

رأى الغزاة احلامهم تتبخر امام خندق هائل. وتمتم ابو سفيان بحقد؟

ـ ان هذه المكيدة ما كانت العرب تعرفها.

ولم يكن من خيار امام الاحزاب سوى فرض الحصار.

كانت الظروف في غاية الخطورة، فعشرة آلاف مقاتل خارج المدينة ينتظرون الفرصة للانقضاض، وفي الداخل فاحت رائحة الغدر اليهودي فقد ينقض الف مقاتل لطعن خاصرة الجيش الاسلامي.

وكان المنافقون والذين في قلوبهم مرض يتسللون هاربين من صفوف القوات الاسلامية عائدين الى منازلهم، حتى لم يبق مع النبي من مجموع ثلاثة آلاف سوى ألف مقاتل فقط.

وفي هذه الظروف الخطيرة قام النبي(ص) بمناورة سياسية لتخفيف الضغط عن المدينة، خاصّة وقد اعلن اليهود نقضهم المعاهدة مما فت في عضد المسلمين الذين اصبحوا يترقبون الطعنة اليهودية بين لحظة وأخرى.

وفي ليلة عاصفة استدعى النبي زعيم قبائل غطفان عيينة بن حصن الفزاري للاجتماع به والتفاوض معه حول صيغة للسلام.

كان النبي يدرك ان بواعث غطفان في عملية الغزو هو الطمع في الاسلوب ونهب المدينة.

استجاب القائد الغطفاني وتسلل مع الحارث بن عوف سرّاً حيث وجدا من يساعدهما على اجتياز الخندق ثم ارشادهما الى مقرّ القيادة الاسلامية

عرض النبي فكرة الاتفاق توقف غطفان عن القيام باي عمل حربي والانسحاب؛ فى مقابل ذلك يدفع المسلمون ثلث محصول المدينة من الثمار لمدة عام واحد.

وقد وافق زعيم غطفان على الفور، وقبل تحرير الاتفاق اشترط

النبي موافقة الاوس والخزرج لأن ثمار المدينة ملك لهاتين القبيلتين.

لهذا استدعى النبي سعد بن معاذ[1] سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، وعندما حضر الزعيمان واطلعا على نص الاتفاق قال سعد بن معاذ:

- يارسول الله أمر تحبّه فتصعنه أم شيء امرك الله به قال النبي(ص):

- لو امرني الله ماشاورتكما .. ولكن رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة فاردت ان اكسر شوكتهم.

قال سعد:

- يارسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم (غطفان) على الشرك بالله وعبادة الاوثان، لانعبد الله ولانعرفه وهم لايطمعون ان يأكلوا منا ثمرة الا قرىً (ضيافة) اوبيعاً، افحين اكرمنا الله بالاسلام وهدانا له واعزّنا بك وبه نقطعهم اموالنا؟! والله لانعطيهم إلا السيف.

ابتسم النبي لهذا الحماس، فيما لمس القائد الغطفاني اصراراً عجيباً على الاستبسال حتى الموت، فنهض مغادراً خيمة الرسول(ص) وفي نفسه تصميم على العودة والانسحاب، وتناول سعد صحيفة الاتفاق ومحا بنودها.

---

(١) جرح في مناوشات الخندق وتوفى بعد شهر.

حقق اللقاء اهدافه السياسية، لأن غطفان اوقفت عملياتها العسكرية على الرغم من مرابطتها في مواقعها.

ظل الموقف على حاله، مناوشات بالسهام، ودوريات قتالية تجوب جانبي الخندق لدى الطرفين.

ثم حدث تطور عسكري خطير عندما نفّذ فريق من قوات الغزو عملية اقتحامية جريئة في محاولة لنقل المعركة الى ماوراء الخندق في داخل المدينة؛ ويبدو ان قائد المفرزة عمرو بن ود الذي كان معدوداً ابطال قريش يتمتع بلياقة حربية عالية جعلت الكثيرين يحجمون عن مواجهته.

عبرت المفرزة الخندق وراح عمرو بن ود يسخر من الجيش الاسلامي؛ وبالطبع لم يطل ذلك فقد نهض بطل الاسلام الخالد علي ابن ابي طالب للمواجهة، وتلقين الغزاة درساً في فروسية لم تشهد الجزيرة لها نظيراً.

عرض علي بن ابي طالب على خصمه اعتناق الاسلام؛ فرفض ثم عرض عليه الانسحاب والعودة من حيث جاء، بالطبع رفض ذلك ايضاً، ولم يبق سوى الخيار الثالث، فقال علي(ع):

ـ ادعوك الى القتال.

وعدّ الفارس الذي عبر الخندق هذه الدعوة تحدّياً فقفز من فوق

ف...مه، وسدّد لعلي ضربة جبّارة تفاداها فتى الاسلام، الذي ردّ الضربة ا...ى منها ولتكون فيها نهاية المعتدي.

كبّر الجيش الاسلامي وعلت في الفضاء هتافات «الله اكبر»، وإثر ...الك فرّ افراد المفرزة فقتل احدهم وجرح بعضهم.

وتكرر حادث الاقتحام اذ اندفع نوفل بن عبد الله بن المغيرة لعبور الخندق، فابتلعته الهوّة لتكون فيه نهايته.

عرض ابو سفيان مئة من الابل مقابل انتشال جثته، غير ان النبي ...رفض ذلك وسمح لهم بانتشاله دون مقابل قائلاً:

ـ خذوه فانه خبيث؛ خبيث الدية.

## تحركات يهودية

حاول اليهود القيام بعمل حربي ما، فارسلوا أحد جواسيسهم للقيام بمهمة استطلاعية.

وشاهدت صفية عمّة النبي(ص) وشقيقة الحمزة الشهيد، ذلك اليهودي وكانت ترعى النساء والاطفال في احد الحصون، فلفتت نظر حسان بن ثابت الشاعر الى الخطر، غير ان الاخير احجم عن منازلته، فاضطرت صفية الى ترك الحصن ومنازلة اليهودي الذي لقي مصرعه على يدها.

وقد أثار ذلك الحادث مخاوف اليهود الذين ظنوا ان النبي قد خصص قوات كبيرة لحماية تلك المنطقة.

مرّت ثلاثة اسابيع أخفقت خلالها كل المحاولات من اجل اجتياز الخندق وحسم الموقف.

وفي محاولة لارهاق اعصاب المسلمين قرر ابو سفيان القيام بعمليات التجوال على الخيل ليل نهار، وكان يتناوب على قيادة الفرسان خالد بن الوليد وعكرمة بن ابي جهل؛ وقد لعبت هذه المناورات والرياح الباردة الشديدة، واشاعات المنافقين دوراً في زعزعة معنويات المسلمين الى حدّما، وخير صورة للموقف هو ما جسدته الآيات من السورة التي حملت اسم الاحزاب.

ـ «واذ جاءوكم من فوقكم ومن اسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً. واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا»[١].

وعندما أوشك الاسبوع الرابع على الانتهاء تسلل نعيم بن مسعود وهو من قبائل غطفان الى المعسكر الاسلامي وعرض على النبي اعتناق الاسلام، وانه مستعد منذ الآن للقيام باية مهمة.

---

(١) الآيات: ١٠ـ١٢.

فقال النبي(ص) بعد ان لمح فيه ذكاءً غير عادي:

- انما انت فينا رجل واحد فخذّل عنا ما استطعت فان الحرب خدعة.

وانطلق نعيم بن مسعود من فوره الى حصون قريظة، ثم كر عائداً الى معكسر الاحزاب[1].

## رياح النصر

اشتد هبوب الرياح وبلغت شدّتها انها كانت تجتث أوتاد الخيام وتطفئ النيران وكانت تلك الليلة العاصفة، ليلة شديدة السواد، وقد غمر الظلام الاشياء واحاطها بغلالة من الغموض والاسرار.

ورفع النبي (ص) يديه الى السماء يستمدها النصر، وانفتحت ابواب السماء، بالنصر، وبدت العاصفة مزمجرة غاضبة، تمزق خيام الذين كفروا انهم لا ايمان لهم.

كان ابو سفيان القائد العام قد قرر خوض المعركة الحاسمة بأي ثمن، غير ان الرياح العاتية والامطار الرعدية الغزيرة قلبت الامور رأساً على عقب. واذا بابي سفيان يعقد جلسة طارئة لبحث فكرة

---

(١) تمكن من تفجير ازمة في الثقة بين اليهود وقوات الاحزاب، مما دفع بالطرفين الى مراجعة حساباتهما واتخاذ قرارات مناسبة.

الانسحاب قائلاً:

ـ يامعشر قريش! لقد هلك الكراع والخف[1] واخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم مانكره، ولقينا من شدّة الريح ماترون، ما تطمئن لنا قدر، ولاتقوم لنا نار، ومايستمسك لنا بناء، فارتحلوا فاني مرتحل.

وفي غمرة الظلام بدأت الاستعدادات للانسحاب، فيما قامت فرقة من الفرسان بتغطية عملية الانسحاب وحماية مؤخرة جيش الاحزاب من هجوم محتمل قد يشنّه المسلمون.

وعندما أشرقت شمس اليوم التالي اذا بالجانب الآخر من الخندق يروي قصّة فرار الاحزاب

كان منظر الخيام الممزقة والرماد والاوحال والخيول الميتة، يصور ببلاغة مدىٰ رعب الليلة الفائتة.

عمت الفرحة ربوع المدينة وقد صدق الله وعده:

ـ «يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً».

وهكذا اصدر النبي(ص) امره الى جنود الاسلام بالعودة الى منازلهم بعد حصار دام ثلاثين يوماً، وقد ابلغ الرسول رجاله ان هذا الغزو سيكون آخر محاولة عسكرية تقوم بها قريش:

---

(١) تعبير عن الابل والخيل.

ـ لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا.

## حصاد الغدر

ايقن يهود بني قريظة بان ساعة القصاص قد حانت وأن لهم ان يحصدوا نتائج غدرهم وخيانتهم؛ فاختبأوا خلف حصونهم.

لقد ارتكبت هذة القبيلة التي تعمل في دباغة الجلود خيانة مزدوجة فهي لم تتناس معاهدة الدفاع المشترك عن المدينة في حال تعرّضها الى غزو ما، بل راحت ابعد من ذلك في دعم الغزاة والتفكير في طعن الجيش الاسلامي من الخلف.

وبعد يوم واحد من رحيل جيوش الاحزاب، اعلن النبي ساعة الحسم مع اليهود، اذ ارتفع صوت بلال:

ـ من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة.

وسلّم النبي اللواء الى بطل الاسلام علي بن ابي طالب قائلاً له:

ـ كن في مقدمة الجيش واسبقنا.

وانطلق علي يقود فصائل المقاتلين حتى اذا اشرفوا على الحصون انهالت الشتائم على النبي فردّ علي بأدب الاسلام.

ـ السيف بيننا وبينكم.

وصل النبي (ص) وقد احكم المسلمون الحصار؛ وكان الشرط

الوحيد الاستسلام دون قيد او شرط.

وبعد عشرين يوماً بعث اليهود وفداً للتفاوض وترتيب عملية الجلاء اسوة باخوانهم بني النضير.

وكان موقف الجانب الاسلامي ثابتاً لايتزحزح، وعرض اليهود مرّة اخرى، بعد ان بلغ الحصار ذروته، استعدادهم للجلاء عن يثرب وتركهم كل مايملكون للمسلمين.

كان اليهود يماطلون في الاستسلام، فاصدر النبي امراً بالاستعداد للهجوم واقتحام الحصون عنوة.

وعندما شاهد اليهود تأهب الكتائب الاسلامية، وانتظارها شارة البدء، طلبوا ايقاف الهجوم، واعلنوا استسلامهم دون قيد او شرط.

وألقى اليهود السلاح وبادروا الى فتح حصونهم وقلاعهم، وهتف سعد بن معاذ وقد رضي حكمه الجميع:

ـ آن لسعد ان لاتأخذه في الله لومة لائم.

كان سعد يعرف «التوراة» حيث حرّفوا الكلم عن مواضعه ليسوموا البشر الموت والفناء.

كان يدري ما في الاصحاح من التثنية من ريح صفراء لاتبقي ولاتذر: «حين تقترب من المدينة لكي تحاربها استدعها الى الصلح فان اجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون

ان للتسخير ويستعبد لك وان لم تسالمك بل عملت معك حرباً تحاصرها واذا دفعها الربّ الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدّ السيف. وأما النساء والاطفال والبهائم وكل ومافي المدينة غنيمة تفتحها لنفسك وتأكل غنيمة اعدائك التي اعطاك الربّ الهك».

وهكذا اذاقهم سعد حكم توارتهم التي حرّفوها بانفسهم واذاقوها الامم، وسقطت رؤوس الخيانة والغدر بما في ذلك رأس حي بن اخطب مخطط فكرة الغزو والفناء.

## الطريق الى مكة

في العام السادس الهجري وقعت بعض الحوادث الهامة فقد اغارت غطفان بقيادة عيينة بن حصن الفزاري على ضواحي المدينة وقتلت احد الرعاة وساقت قطعان الابل، فارسل النبي فرقة لمطاردة المغيرين استطاعت استرداد نصف الابل:

كما قاد النبي (ص) بنفسه جيشاً لمداهمة بني المصطلق بعد انتشار اخبار حول استعدادهم لحرب المسلمين، ودارت معركة ضارية انتصر فيها الجيش الاسلامي.

وقد شهد هذا العام عمليات عسكريه تأديبية للقبائل التي تحاول او تفكر بالاغارة على المدينة.

وعلى صعيد الاحداث العالمية وقع حـادث كـان له صـداه فـي الجزيرة العربية، عندما انفجرت الحرب بين اكبر دولتين في العـالم الفرس والروم، حيث ألحق الروم بالفرس هزيمة ساحقة واسـتردوا فيها سوريا والمناطق المحتلة في آسيا الصغرىٰ، وتحققت بذلك نبوءة القرآن الكريم، يوم كان المسلمون في مكّة معذّبين مقهورين فضاعف انتصار الفرس على الروم آلامهم[1] حـتى اذا حـل العـام السـادس الهجري اشتعلت الحرب بين الامبراطوريتين، في نينوىٰ حيث هـزم الفرس هزيمة ساحقة وتلاحقت الاحـداث، الى ان انـتهت بـاقدام «شيرويه» ابن كسرى على خلع ابيه وقتله، ثم عقد صلحاً مع هرقل امبراطور الروم، وترتب عـلى ذلك اعـادة «الصـلبوت»[2] الى بـيت

---

(١) كانت الاعوام من (٦٠٢ ـ ٦١٠) فترة سيئة للامـبراطـورية البـيزنطية، فـقد عـمت البـلاد اضطرابات واسعة وبدت الحكومة عاجزة تماماً، فانتهز خسـرو پـرويز مـلك الفـرس آنـذاك، الفرصة وبدأ يوجه ضرباته المدمّرة لخصمه اللدود، فنظم حملات عسكرية بدأت مع عام ٦١٠ وحتى عام ٦١٩، وحقق المهاجمون انتصارات ساحقة في جبهات عديدة ففي الاعوام ٦٠٥الى ٦١٣م احتل الفرس مدن عديدة من بينها : دارا، آمد، اوديسا، نصيرا بـوليس، حـلب، آپـايا، ودمشق.

وقد أغرت هذه الانتصارات الفرس فاعلن ملكهم «پرويز» حرباً شاملة ضد المسيحية وأيـدته في ذلك جموع غفيرة من اليهود فزحف باتجاه «اورشليم» واحتلها عام ٦١٤ بعد ان راح ضحية المعارك ٩٠/٠٠٠ مسيحي، واحرقت الكنائس بما في ذلك كنسية القيامة واستولى الفرس على صليب (الصلبوت) وتم نقله الى ايران.

(٢) خشبة الصليب الذي يعتقد النصارى ان المسيح صلب عليها.

المقدس مرّة اخرى.

وابتهج المسلمون هذه المرّة فيما استاء المشركون وقد تذكر الجميع آيات السماء.

«الم ، غلبت الروم في ادنى الارض [1] وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ».

وفي غمرة الحوادث اعلن النبي(ص) عزمه على اداء العمرة وبدأت الاستعدادات للتوجه صوب مكّة، وبلغ عدد الذين لبّوا دعوة الرسول الفاً واربعمائة رجل، ومايميز هذا الحشد انه لم يصطحب معه من التجهيزات العسكرية غير السيوف، حتى يمكن القول انها مسيرة للسلام اذ اعلن النبي(ص) انه لاينوي القتال ابداً.

وبلغ التوتر في مكة ذروته وسادت موجة من الحقد والحمية الجاهلية. والتصميم على منع النبي واصحابه من دخول مكة باي ثمن.

وانطلقت «القصوى» تطوي المسافات باتجاه مكة حتى اذا وصلت منعطفاً جبلياً يشرف على الحديبية بركت، فقال بعض اصحابه: حرنت الناقة؟

فاجاب النبي(ص):

---

(١) اذرعات في الشام وهي ادنى ارض الروم الى العرب.

ـ لا ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكّة.

وأردف :

ـ والذي نفس محمد بيده لاتدعني قريش اليوم الى خطة يسألون فيها صلة الرحم إلا اعطيتهم اياها.

وهكذا عسكرت قوات الاسلام في الحديبية.

وارسلت قريش وفودها لاقناع الرسول(ص) بالعودة الى المدينة، والتلويح بالحرب، وكان الحوار يتكرر في كلّ مرّة!

ـ هل جئت معتمراً ام محارباً.

ـ انا لم نجئ لقتال احد، جئنا معتمرين.

وبالرغم من قناعة الوفود بنوايا النبي(ص) في السلام، إلّا ان زعماء مكّة رفضوا بعنادٍ فكرة دخول النبي.

وشهدت الصحراء بين «الحديبية» ومكة تتابع الوفود دون جدوى.

ورأى النبي(ص) ان يرسل وفداً من قبله الى مكة ليشرح لقريش اهداف الزيارة؛ ولم يجد النبي افضل من عثمان بن عفان رئيساً للوفد لقرابته من ابي سفيان. وطلب النبي من مبعوثه ان يحدد حواره مع قريش في هذا الاطار:

ـ انا لم نأت لقتال احد، وانما جئنا زواراً لهذا البيت معظمين لحرمته ومعنا الهدي ننحره وننصرف.

وبالرغم من ترحيب قريش بعثمان إلّا انها لم تبد مرونة تجاه رغبة المسلمين.

وحدث تطور زاد في توتر الوضع وخطورة الموقف، اثر ارسال قريش الحليس بن علقمة سيد الاحابيش في مكّة وكان قد ساءه منظر المسلمين في الصحراء ينتظرون الاذن دخول مكة فهتف متأثراً:

ـ سبحان الله ماينبغي لهؤلاء ان يصدّوا عن البيت.

ولقد حاول الحليس اقناع زعماء مكّة بالسماح للمسلمين بالحج فقالوا باستخفاف:

ـ انما انت اعرابي لا علم لك.

فرد سيد الاحابيش غاضباً.

ـ والله ماعلى هذا حالفناكم، أيُصدّ عن بيت الله من جاءه معظماً؟!

واردف مهدداً:

ـ والذي نفس الحليس بيده لتخلنّ بين محمد وما جاء به او لأنفرنّ بالاحابيش نفرة رجل واحد.

وقد ادى هذا الموقف الى ان تبدي قريش بعض المرونة، فارسلت وفداً برئاسة سهيل بن عمرو للتفاوض مع النبي(ص) حول نقطة جوهرية هي عودة النبي الى المدينة وتأجيل زيارته الى العام القادم.

طلب النبي(ص) من وفد قريش، وقبل البدء باية محادثات،

اطلاق سراح الوفد الاسلامي الذي احتُجز دون مبرّر.

ويبدو ان تيار السلام قد سيطر اخيراً في اوساط مكّة فتجاوبت قريش مع مطالب المسلمين واطلق سراح الوفد الذي عاد الى الحديبية.

واسفر الحوار عن اتفاق من اربعة بنود، وعندما شرع علي بن ابي طالب بتحريرها وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم.

رفض المفاوض القرشي معرباً عن استنكاره وقال:

ـ لا اعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم.

واشار النبي(ص) بموافقته على ذلك فكتب:

ـ هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو.

وابدى سهيل اعتراضه مرّة اخرى قائلاً:

ـ لو شهدت انك رسول الله لم اقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم ابيك.. اكتب محمد بن عبد الله.

فعلّق النبي بحزن:

ـ والله اني رسول الله وان كذبتموني.

التفت سهيل الى علي وطلب ان يمحو (رسول الله)، فرفض.

وهنا امسك النبي صحيفة الاتفاق ومحاها بنفسه.

وهكذا تمت صيغة الاتفاق بشكلها النهائي:

باسمك اللهم

هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو على وضع الحرب عن الناس عشر سنين..»».

وقد تضمن الاتفاق اضافة الى انهاء حالة الحرب عشر سنوات بنوداً ثلاثة اخرى:

ـ ان يسلّم النبي من يأتيه من قريش مسلماً دون اذن وليه، في مقابل عدم التزام قريش باعادة من يسلّم نفسه من المسلمين.

ـ ان الباب مفتوح للجميع في عقد التحالفات مع اي من الطرفين اضافة الى البند الذي عدّته قريش جوهرياً وهو:

ـ عودة النبي واصحابه هذا العام على ان يؤدّوا العمرة في العام القادم دون تجهيزات عسكرية سوى السيوف، فيما تخلي قريش مكّة اثناء الزيارة.

وأعلنت قبيلة خزاعة فور توقيع الاتفاق تحالفها مع النبي، فيما اعلنت قبيلة بني بكر تحالفها مع قريش.

وحدثت ازمة في الجانب الاسلامي، بعد ان استنكر عمر بن الخطاب الاتفاق وعدّه مذلّاً، وخاطب النبي بلهجة فيها نوع من الفظاظة التي اشتهر بها، قائلا:

ـ ألست نبي الله حقاً؟!

وجاء صوت النبي هادئاً معبراً عن خلق سماوي رفيع:

ـ بلىٰ.

ـ ألسنا على حق، وعدوّنا على باطل؟!

ـ بلى.

ـ أليس قتلانا في الجنّة وقتلاهم في النار؟!

ـ بلى.

وهنا قال عمر بحدّة:

ـ ففيم نعطي الدنية في ديننا اذن؟!

فقال النبي بهدوء:

ـ اني رسول الله ولست اعصيه وهو ناصري.

فقال عمر وقد ساوره الشك:

ـ أولست كنت تحدثنا انا سنأتي البيت فنطوف به

قال النبي:

ـ بلى. أفاخبرتك انك تاتيه عامك هذا؟

فأجاب عمر:

ـ لا.

وانصرف غاضباً.

وفي تلك اللحظات والمسلمون مستاءون من نتائج الحديبية، هبط

.. ل يحمل سورة الفتح.

وقد حققت اتفاقية السلام هذه المنافع لكلا الطرفين، فمثلاً افادت .. من الاتفاقية اعادة فتح طريق القوافل التجارية الغربية؛ الأمر الذي ساعد على تخفيف ازمتها الاقتصادية كما انها حفظت لها ماء الوجه بصدّها النبي(ص) عن زيارة البيت الحرام.

اما الجانب الاسلامي فقد حقق كثيراً من المنافع في طليعتها:

تعاطف الرأي العام وتيار المعتدلين في مكّة عندما ظهر للجميع الاحترام العميق الذي يكنه المسلمون للكعبة اضافة الى فتح ابواب مكّة في العام التالي، وهو امر كانت له آثاره البعيدة في تعزيز نفوذ الاسلام؛ ولاننسى الاشارة الى ان الاتفاق يعني اول اعتراف رسمي لقريش بالدولة الاسلامية واعتبار الاسلام احد الاديان المعترف بها في الجزيرة العربية، فانتشر الاسلام خلال فترة السلام، حتى ان الذين اعتنقوا الدين الحنيف في تلك الفترة فاق بكثير عدد الذين اعتنقوه قبل ذلك.

## ملوك العالم

فكر النبي بعد معاهدة السلام في نشر الاسلام عالمياً، ولعل قريش وغيرها من القبائل العربية فوجئت بانباء الصحراء وهي تتحدث عن

فرسان مسلمين يحملون رسائل النبي(ص) الى ملوك العالم.

كان النبي(ص) قد اتخذ خاتماً فضياً منقوشاً عليه «محمد رسول الله» لتوقيع رسائله.

وانطلقت خيول الاسلام تحمل دعوة النبي لدخول الدين الجديد.

فقد انطلق دحية الكلبي يحمل رساله النبي الى امبراطور الروم.

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم

سلام على من اتبع الهدى

اما بعد؛ فاني ادعوك بدعاية الاسلام، اسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرّتين، فان توليت فانما عليك اثم الاريسيين[1] «يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألّا نعبد إلّا الله ولانشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون»[2].

وتتابعت رسائل النبي، رسالة الى كسرى ملك الفرس، ورسالة الى النجاشي ملك الحبشة، تضمنت ايضاً السماح لجعفر بن ابي طالب والمهاجرين بالعودة، ورسالة الى المقوقس ملك مصر، ورسالة الي

---

(١) رعايا الامبراطورية.

(٢) آل عمران: ٦٤.

الحارث الغساني امير دمشق؛ من قبل هرقل، ورسالة الى المنذر بن ساوى حاكم البحرين، ورسالة الى باذان حاكم اليمن. وقد اعتنق الاخيران الاسلام.

## حصون السامري

تخللت فترة السلام التي اعقبت «صلح الحديبية» بعض العمليات العسكرية في طليعتها تساقط حصون خيبر وقلاعها في قبضة الجيش الاسلامي الزاحف.

وقد تفجر الوضع بعد ان تناقلت الانباء عن تحرّكات يهودية في الظلام ولقاءات مشبوهة مع قبائل غطفان لغزو المدينة.

لقد كان الرسول(ص) يدرك ابعاد الخطر اليهودي ولهذا كان فرسان الدوريات يجوبون الصحراء بين مضارب غطفان وحصون خيبر لرصد التحركات المشبوهة، وعندما تأكد النبي من المؤامرة عبأ جيشه زاحفاً باتجاه حصون الغدر اليهودية.

وقد تحركت القوات الاسلامية باقصى سرعتها متجهة الى عرض الصحراء واحتلال الطريق بين مضارب غطفان وحصون خيبر ثم انكفأت باتجاه خيبر لقطع الطريق على اي تنسيق محتمل او وصول نجدات من غطفان الى خيبر.

بلغ تعداد الجيش الاسلامي ألفاً واربعمائة مقاتل يشكل سلاح الفرسان مئتي فارس وكانت راية العقاب تخفق فوق هامة النبي(ص).

بدت الحصون ذلك الفجر ككائنات اسطورية مخيفة تجثم فوق الارض والصحراء برمالها المتموجة تترقب معركة وشيكة.. معركة سيكون لها شأن.

اجتاح المسلمون المناطق المشجرة مابين الحصون وبدت الجدران الصخرية لـ «النطاة» و «الصعب» و«ناعم» و «الشق» و«القموص» و«سلالم»[1] ثابتة في وجه الهجمات الاسلامية، ودارت معارك ضارية في الشوارع.

سقط خمسون جريحاً من المسلمين واستشهد محمد بن سلمة وأخفقت الحملات الاسلامية في احتلال اي من الحصون، وكان اليهود يسخرون من الجيش الاسلامي متباهين بشجاعة ابطالهم.

بان الغضب على وجه النبي فهتف:

ـ لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله.

نشر الظلام ستائره، واشتعلت مواقد في قلب الليل.. والنسائم تداعب سعفات النخيل، ودارت همسات حالمة؛ ترى من سيحظى بهذا المجد غداً؟

---

(١) اسماء الحصون والقلاع اليهودية.

طلع الفجر وتنفس الصباح واستيقظت الكائنات لتبدأ يوماً جديداً.

تحلّق المسلمون حول النبي(ص) يتطلعون الى رجل يحب الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله، ولم يطل الانتظار اذ هتف النبي:

ـ اين علي؟

وتقدّم فتى في الثلاثين او يزيد .. امسك براية العقاب وراح يصغي الى صوت سماوي.

ـ انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم الى الاسلام فان لم يستجيبوا فقاتلهم .. انطلق فتح الله عليك.

هرول علي ليبعث الحماس في جنوده، فبدا بحلّته الارجوانية جمرة متألقة. وعندما صار قريباً من «القموص» خلع درعه ليكون اكثر قدرة في الحركة، وأمر جنوده ان يفعلوا ذلك.

رفض اليهود ساخرين دعوة الاسلام ونداء السلام، وكان الخيار الوحيد هو احراق العجل[1].

كان منظر علي بلا درع قد حرّك شهوة الغدر والانتقام في نفوسهم.. فراح ابطالهم يخرجون مدججين بالسلاح وكانوا يتساقطون الواحد تلو الآخر عند قدميه.

الذين كانوا يراقبون الصراع ادركوا ان هناك سرّاً في انتصار علي..

---

(١) اشارة الى عجل السامري.

رأوا بأُم اعينهم كيف يُهزم الحديد امام قلب المؤمن.

وهبط مرحب درجات الحصن كتلة هائلة من الحديد والبأس والغدر، في قبضته حربة ذات ثلاثة رؤوس كأفعىٰ اسطورية.

تقدم مرحب ينقل خطاه المثقلة. الزرد والحديد، ليس هناك في كل جسده الفارع ثغرة يمكن للسيف ان ينفذ فيها.

وتوقع المسلمون واليهود.. توقعوا جميعاً نهاية علي. تقدمت كتلة الحديد.. وانطلقت الحربة برؤوسها الثلاثة وكادت ان تخترق صدر علي وتمزق القلب المؤمن.

ارتدّ عليّ الى الوراء ثم قفز في الهواء ليهوي بضربة هائلة اودعها غضب السماء. وتحطم الحديد. مرّت لحظة صمت قبل ان ترتطم كتلة هائلة بالارض محدثة دوياً تنخلع له القلوب المذعورة.. وقد قتل داود جالوت.. واندفع علي بعد ان حطم الغرور اليهودي الى باب الحصن لينتزعه وسط دهشة الجميع، وأصبح جسراً فوق الخندق يتدفق عبره المهاجمون.. وسرعان ماسقط «القموص» و«الوطيح» و«السلالم».. وسقطت خيبر كلها.

وفي غمرة الفرح وصل جعفر على رأس عشرات المهاجرين الى الحبشة فتضاعفت فرحة النبي فقال والبسمة تشرق في وجهه:

ـ ما ادري بايهما اشدّ شروراً بقدوم جعفر ام بفتح خيبر.

ومع سقوط خيبر تقوض النفوذ السياسي والعسكري وحتى الاقتصادي لليهود في شبه الجزيرة العربية

## انهيار الوثنية

اعقب سقوط خيبر استسلام أليهود في فدك، ثم وقع حادث له دويّه في شبه الجزيرة العربية ، فقد قرر النبي(ص) ارسال حملة تأديبية الى الممالك العربية الموالية للرومان، اثر مصرع مبعوثه الى هرقل على يد شرحبيل بن عمرو الغساني

بلغ عدد جنود الحملة ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة زيد بن حارثة، فان استشهد فجعفر ابن ابي طالب، فان استشهد فعبد الله بن رواحة.

وفي جمادى الاولى من السنة الثامنة للهجرة تقدم الجيش الاسلامي يطوي المسافات باتجاه الشمال تتألق في نفوس الجنود وصية الرسول الخالدة:

ـ اوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً:

اغزو باسم الله

فقاتِلوا عدو الله وعدوكم بالشام.

وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ولاتقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا كبيراً فانياً.

ولا تقطعوا شجرةً ولا تهدموا بناء.

ومهما كانت بواعث الزحف الاسلامي فانه يجسد بشكل واضح عالمية الاسلام؛ خاصة وقد سبق هذا التحرك العسكري رسائل هامّة الى ملوك العالم آنذاك.

وفي «مؤتة» من ارض البلقاء في تخوم الشام تقابل الجيشان، لقد تعددت الروايات حول ضخامة الجيش الروماني فأشار بعضها الى انه ناهز المئتي ألف، يؤلف الرومان نصفه، فيما يشكل التجمع العربي النصف الآخر[١].

وتجدر الاشارة الى ان تيودور[٢] كان القائد العام للجيش الروماني.

لم تفكر القيادة الاسلامية بالتراجع امام التفوق الساحق للعدو وقررت خوض المعركة مادامت الشهادة تمثل الى جانب النصر هدفاً آخر وهي احدى الحسنيين.

وقد ذهل الرومان امام استبسال المسلمين واعتدادهم بأنفسهم واندفاعهم الى الموت، وتساقط قادة الحملة شهداء في ارض المعركة فتولّىٰ القيادة العامة خالد بن الوليد الذي اعتنق الاسلام حديثاً، وقرر

---

(١) أسهمت قبائل لخم، جذام، بلقين وبلي في القتال الى جانب الرومان.

(٢) شقيق الامبراطور هرقل.

الانسحاب وانقاذ الجيش الاسلامي من الابادة.

انتهز القائد الجديد حلول الظلام وقام بتنظيم عمليه انسحاب سريعة عبر الصحراء.

وفي فجر اليوم التالي فوجئ الرومان بالانسحاب وتطلعوا متهيبين الى الصحراء وقرر تيودور العودة وعدم المغامرة باختراق الصحراء.

## العدوان على السلام

في شهر رمضان خرقت قريش وحلفاؤها من بني بكر اتفاق السلام، فقد قامت قبيلة بني بكر بالاغارة على مضارب خزاعة ليلاً وأعملت فيها السيف. وبالرغم من لجوء الاخيرة الى بيت الله الحرام فقد استمر المعتدون بمطاردتها، ومحاولة استئصالها؛ ولاننسىٰ ان نشير ان هذه الغارة تمت بتحريض من قريش التي تجاوزت التحريض الى الدعم بالمال والسلاح.

وفي غمرة الاحداث انطلق عمرو بن سالم صوب المدينة مطلقاً صرخة استغاثة ومذكراً بالتحالف بل واعتناق افراد قبيلته للاسلام.

وقد تأثر النبي(ص) بشدّة وقال:

ـ والذي نفسي بيده لامنعنهم مما امنع منه نفسي وأهل بيتي.

امر النبي(ص) الوفد الخزاعي اتخاذ جانب السرّية في العودة

وعدم ابلاغ احد بسفر الوفد الى المدينة.

ويبدو ان قريش قد شعرت بالندم جرّاء ماحصل، وانها لن تحصد من عملها سوى المرارة، فتوجه ابو سيفان بنفسه رغم كل المخاطر الى المدينة في محاولة لتأكيد صلح الحديبية.

وقد اخفق ابو سفيان في مهمته وعاد الى مكة مذعوراً، خاصّة وانه لم يلق ترحيباً حتى من لدن ابنته ام حبيبة زوجة النبي(ص)، ولعله اصيب بالدهشة بعد ان طوت فراش النبي عندما اراد الجلوس عليه قائلة:

ـ انه فراش رسول الله وانت مشرك نجس.

وهكذا ظلّت مكة تعيش هاجس القصاص الاسلامي القادم من الشمال.

وفي المدينة المنورة بدأت الاستعدادات في تعبئة جيش كبير مؤلف من عشرة آلاف مقاتل، وبالرغم من ضخامة الجيش الاسلامي فان الرسول(ص) اكّد على جانب السرّية في التحرك بغية مفاجأة قريش وارغامها على فتح ابواب مكة دون قتال.

وخلال هذة الفترة برز في مكّة تياران معتدل ومتطرف وكانت هند زوجة ابي سفيان تتزعم التيار الاخير، فيما كان ابو سفيان نفسه يمثل التيار المعتدل من خلال قناعته بعجز مكّة عن مواجهة القوّة المتنامية

للاسلام، سيما وان رحلته الفاشلة الى المدينة قد كرّست في اعماق شعوراً مريراً بالعجز.

وبالرغم من اتخاذ جانب السرّية في تحديد اهداف الحلمة فقد تسرّبت الانباء الى حاطب بن بلتعة فسوّلت له نفسه باطلاع قريش، فسطّر رسالة عاجلة واستأجر امرأة لهذة المهمة.

هبط الوحي يخبر النبي بما فعل الصحابي، فبعث النبي(ص) علياً والزبير على وجه السرعة لانتزاع الرسالة منها، وفي مكان يدعى «الحليفة» قريباً من المدينة لحق الفارسان بها.

انكرت المرأة الرسالة جملة وتفصيلاً، وفتش الزبير الرحل بدقّة فلم يعثر على شيء، وتراجع الزبير امام انكارها وبكائها وهي تذرف دموع التماسيح فقال لعلي:

ـ ليس معها شيء ارجع بنا الى رسول الله نخبره ببراءتها.

غير ان علياً(ع) الذي لايساوره الشك فيما اخبره رسول الله، اخترط سيفه وهدد المرأة اذا لم تسلّم الرسالة.

وهنا انهارت المرأة واعترفت بحقيقة الأمر وسلمت الرسالة بعد ان استخرجتها من جدائل شعرها.

وهكذا امكن للنبي(ص) الزحف باتجاه الجنوب في سرّية تامّة حتى اذا وصل المرتفعات المطلة على مكة عسكر بقوّاته، وفوجئت

قريش بتوهج النيران فوق المرتفعات وكان منظراً مهيباً، حدا بأبي سفيان وزعماء آخرين الى التوجه نحوها لمعرفة ماوراءها.

وقال ابو سفيان مبهوراً:

ـ ما رأيت كالليلة نيراناً ولا عسكراً.

فردّ بديل بن ورقاء:

ـ هذه نيران خزاعة خمشتها الحرب.

قال ابو سفيان:

ـ خزاعة ألأم من ذلك وأذلّ.

وفي غمرة الظلام وحينما كان العباس بن عبد المطلب عم النبي(ص) يقوم بمهمة وساطية لاستحصال الأمان لبعض أهل مكّة، سمع الحوار فهتف بأبي سفيان:

ـ يا أبا حنظلة.

ـ ابو الفضل ؟!

ـ نعم.

وملأت الغبطة قلب ابي سفيان وهو يرى خشبة النجاة.

ـ لبيك يا أبا الفضل ما وراءك؟

ـ هذا رسول الله قد دلف اليكم بما لا قبل لكم به... عشرة آلاف من المسلمين.

فقال ابو سفيان منهاراً:

ـ فما تأمرني به؟

ـ تأتي معي فآخذ لك اماناً من رسول الله، وانطلق ابو سفيان مع العباس الى النبي(ص) الذي أجّل اللقاء الى غد.

وفي الصباح كانت مقاومة ابي سفيان قد بلغت درجة الصفر وأعلن استسلامه باعتناق الاسلام.

واراد النبي(ص) ان يحطّم كل الاحلام الوثنية التافهة، فأمر العباس ان يأخد ابا سفيان فوق المرتفعات ليرى بنفسه قدرة الجيش الاسلامي وتنامي قوّته.

وكانت الكتائب الاسلامية تمرّ امام ناظريه وكان ابو سفيان مبهوراً يتضاءل حتى غدا كذبابة، وعندما مرّت الكتيبة الخضراء سأل ابو سفيان:

ـ من هؤلاء؟!

فقال العباس:

ـ هذا رسول الله في المهاجرين والانصار.

وهنا اعلن ابو سفيان استسلامه:

ـ ما لأحد بهؤلاء طاقة.

وأردف بشيء من الحقد والضيق:

ـ لقد اصبح ملك ابن اخيك اليوم عظيماً.

فالتفت العباس اليه وقال بانفعال:

ـ انها النبوة يا أبا سفيان.

فردّ ابو سفيان مهزوماً.

ـ نعم.

## وجاء الفتح

قال العباس للنبي(ص):

ـ يارسول الله، ان ابا سفيان رجل يحب الفخر في قومه.

فقال النبي:

ـ من دخل دار ابي سفيان فهو آمن.

ومن دخل المسجد فهو آمن.

ومن أغلق بابه عليه فهو آمن.

وانطلق ابو سفيان يحذّر مكة من مغبّة العناد، وأن تفتح ابوابها للفاتحين.

وفي المسجد الحرام وبينما كان الزعماء يتداولون الرأي حول المواقف، دخل ابو سفيان وهتف:

ـ هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به.. فمن دخل دار ابي سفيان

فهو آمن.

اشتعل الحقد في نفس هند وهجمت على زوجها تن.شب اظافرها في وجهه وصاحت:

ـ اقتلوا الحميت الدسم الاحمس[1].

وتهكم بعضهم:

ـ وما تغني عنا دارك؟!

ـ فرد ابو سفيان.

ـ ومن اغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن.

وعاشت مكة لحظات مصيرية، وأقفرت الشوارع والأزقّة من المارّة والعابرين، وبدت المدينة مهجورة فيما كان المسجد الحرام يغصّ بالناس، والاصنام تحدّق ببلاهة.

كان منظر قوّات الاسلام مهيباً، فالنبي فوق ناقته مطرق الرأس تواضعاً، ولم تبد على وجهه المضيء أيّة إشارة على التشفي والانتقام، ولعلّ المشركون فوجئوا بصورة النبي وهو يدخل مكة فاتحاً بعد ثمانية اعوام، منذ ان فرّ منها شريداً.

دخلت القوات الاسلامية من بواباتها الاربع ولم تواجه مقاومة تذكر، باستثناء الرتل الذي كان يقوده خالد بن الوليد حيث تجمع

---

(١) السمين الذي يشبه وعاء السمن.

المتطرفون من قريش بقيادة عكرمة بن ابي جهل يساندهم بنو بكر في احد المنعطفات وامطروا الرتل الاسلامي بوابل من السهام ولكنهم سرعان ماتشتتوا لدى اول هجوم، وهكذا تم فتح مكة.

وكان الجميع يراقبون مايصنع النبي بعد كل هذه المعاناة وبعد كل هذا الصراع المرير والدماء والتعذيب والاضطهاد الذي واجهه منذ ان التقت السماء بالارض في جبل حراء.

تقدم النبي بتواضعه وأدبه العظيم الى الحجر الاسود فاستلمه وقبّله، وطاف بالبيت العتيق، وكانت الاصنام[1] ماتزال تحدّق ببلاهة.

ومرّ النبي يهشم الاصنام بعصاه، وراحت الاوثان العربية تتهاوىٰ انقاضاً كما لو ان زلزالاً قد ضربها بشدة، وعاش المسلمون لحظات سعيدة وهم يرون حفيد ابراهيم يحطم الاصنام ويعلن ان الله واحد لاشريك له.

وتسلّم النبي مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة وانفتح الباب، ودخل النبي جوف الكعبة فرآها مشحونة بالصور وكانت هناك صورتان احداهما لابراهيم والاخرى لاسماعيل وهما يستقسمان بالازلام[2].

---

(١) كان في الكعبة ثلاثمئة وستون صنماً.

(٢) احدى العادات الجاهلية لمعرفة ماينبغي فعله اذا حار المرء.

واستنكر النبي قائلاً:

ـ قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالازلام! ما شأن ابراهيم والأزلام ؟!

وتلا النبي بخشوع:

«ما كان ابراهيم يهودياً ولانصرانياً، ولكن كان حنيفا مسلماً وما كان من المشركين».

وأزال النبي تلك الصورة الوثنية وطهّر الكعبة منها.

وبدت الكعبة متألقة طاهرة، فلا اوثان ولا اصنام وأضحت رمزاً للتوحيد الخالص.

ووقف النبي على باب الكعبة تحدق به الجموع وقلوب الذين كفروا تدقّ بعنف.

هتف النبي:

ـ لا إله إلا الله وحده لاشريك له، صدق وعده، ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده. يامعشر قريش ان الله قد أذهب نخوة الجاهلية. الناس من آدم وآدم من تراب «يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله «اتقاكم».

ومرّت لحظة صمت وهتف النبي بالجموع مرّة اخرى.

ـ يامعشر قريش! ما ترون اني فاعل بكم؟

وجاء الجواب:

ـ خيراً، اخ كريم، وابن اخ كريم.

وأصغى التاريخ الى موقف نبيل لم يشهده لدى اي من الفاتحين.

ـ اذهبوا فانتم الطلقاء.

وأعاد مفاتيح الكعبة الى عثمان بن طلحة وقال:

ـ هذا مفتاحك ياعثمان، اليوم يوم برّ ووفاء.

وعاشت مكّة اسعد لحظاتها، فمن المصير الغامض المجهول، ومن أنهار الدم والخرائب والمناحات، ومن القصاص والانتقام، الى العفو العام، الى نور الاسلام.

ودارت في الفضاء تمتمات الدعاء، فالقلوب والألسن تلهج:

ـ اشهد ان لا إله إلا الله.

ـ اشهد ان محمداً رسول الله.

لم ينسَ النبي(ص) ان يستدعي صاحبه عمر بن الخطاب الذي اهتزّ ايمانه في الحديبية، فقال له:

ـ هذا الذي كنتُ وعدتكم به.

وأطرق عمر خجلاً من موقفه قبل عامين.

وعمّت الفرحة وانتشرت في الفضاء عطور النصر، واستعاد النبي تفاصيل رحلته الطويلة، منذ ان كان وحيداً شريداً حتى انزل الله

نصره، فهوى الى الارض ساجداً لله الخالق البارئ المصوِّر إله ابراهيم واسماعيل، رب العالمين.

وبتحرير مكة من نير المشركين، انهارت الوثنية، ودخلت القبائل العربية في دين الله افواجاً.

وهبط جبريل يحمل سورة النصر:

«اذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجاً. فسبح بحمد ربك واستغفره . انه كان تواباً».

**ويوم حنين**

أحدث فتح مكة دويّاً كبيراً في الجزيرة العربية بعد ان شهدت القبائل انهيار الاوثان وتحوّل الاصنام الى انقاض عند اقدام الموحِّدين.

وقد اثار الانتصار الاسلامي الساحق مخاوف بعض القبائل العربية، وفي طليعتها هوازن وثقيف، وتمكن مالك بن عوف وكان شاباً مندفعاً ان يقنع قبيلة هوازن وان يكسب مواقف القبائل الاخرىٰ في مقاومة الاسلام عسكرياً في اضخم تجمع قبلي تشهده الجزيرة العربية حيث بلغ عدد المقاتلين ثلاثين الفاً.

وكانت خطة القائد الشاب تقضي باحتلال مرتفعات وادي حنين،

والمضيق المؤدي الى عمق الوادي لوضع المسلمين بين فكّي كمّاشة.

وتدفقت القبائل صوب الوادي واستكملت تمركزها في رؤوس التلال وحنايا المرتفعات وكان الشاعر المعروف دريد بن الصمّة ضمن الحشود[1] وكان قد بلغ به الكبر عتياً وفقد بصره، فأثارته ضجة الاصوات وهي تملأ الوادي من حوله فتساءل:

ـ ما لي اسمع رغاء البعير ونهيق الحمير وثغاء الشاة وبكاء الصغير.

فاجاب زعيم هوازن بحماس الشباب.

ـ سقت مع الناس ابناءهم ونساءهم واموالهم.

وتساءل دريد:

ـ ولم ؟!

ـ اردت ان اجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم.

فردّ دريد بعصبية:

ـ انك رجل احمق.

واردف قائلاً.

ـ والله لايردّ المنهزم شيء.

---

(١) من قبيلة هوازن، كان فارساً شجاعاً ويبدو ان قبيلة هوازن كانت ترجع اليه في المهمّات من الامور. لقي مصرعه في المعركة، وكان قبلها قد خطب الخنساء الشاعرة وتغزّل بها ثم هجاها بعد ان رفضته.

ويبدو ان هوازن تعاطفت مع رأي الشاعر، إلّا ان اندفاع الزعيم الشاب الذي اشهر سيفه مهدّداً بالانتحار اذا لم يذعن الجميع لرأيه قد سيطر على الموقف، حيث اتهم زعيم هوازن الشيخ الاعمى (دريد) بالتخريف، وهكذا دقّت طبول الحرب.

وفي مكة تناهت الاخبار الى النبي(ص) عن حشود هائلة بقيادة هوازن تتأهب لمواجهة الاسلام. فارسل عليٰ وجه السرعة من يأتيه بالتفاصيل.

وراح رسول الله يعبئ قوّاته من جديد حيث بلغ تعدادها بعد الفتح اثني عشر ألف مقاتل[1] ضمت بعض زعماء الشرك من الذين دخلوا دين احمد مستسلمين.

ومن أجل استكمال التجهيزات الحربية استعار النبي عتاداً حربياً كان لدى صفوان بن امية[2].

وفي الثالث من شوال تحركت طلائع الجيش الاسلامي تتلوها الكتائب وكانت «حنين» نقطة الهدف. وربما شعر بعض المسلمين ولأول مرة بالتفوق بسبب ضخامة الحشود الاسلامية التي قهرت

---

(١) حيث التحق ألفان من اهل مكّة من الذين اعتنقوا الاسلام حديثاً.

(٢) طلب من النبي(ص) مدّة شهرين لاعلان موقفه من الاسلام، غير انه اسلم فور انتهاء معركة حنين.

«قريش» اعز القبائل العربية على الاطلاق، لقد تحول الاسـلام اذن الى قوّة عسكرية هائلة، وعلى هذا فقد ماجت مثل هذه المشاعر في نفوس بعض المسلمين وهم يتذكرون السـنوات الصـعبة فـي مـطلع الدعوة الاسلامية، وهمس احدهم:

ـ لا نُغلب اليوم من قلّة[1].

ولعل هذا الشعور قد خامر الكثير وجعلهم يفكرون بأن الحرب مع هوازن وثقيف ستغدو مجرّد نزهة عسكرية!

كانت مقدمة الجيش الاسلامي تتألف من قبائل سليم يقودها خالد ابن الوليد.

وفي فجر الحادي عشر من شوّال دخلت طلائع الجيش الاسلامي وادي حنين، وهو وادٍ عميق الانحدار بشعر المرء وهو يوغل فيه كأنه يتجه الى الهاوية.

كان كل شيء هادئاً وقد سيطر صمت رهيب؛ وعندما استكملت معظم القوات الاسلامية دخولها الوادي، فوجئت بالسهام تنبعث من قلب الظلام كالمطر!

لقد اختار مالك بن عـوف المكـان واللـحظة المـناسبة لمـباغتة المسلمين.

---

(١) تنسب بعض الروايات هذة المقولة الىٰ ابي بكر الصديق .

سيطر الارتباك على مقدمة الجيش الاسلامي وغادرت مواقـعها في انسحاب فوضوي، وقد جرف انسحاب المقدمة الكتائب الرئيسية معه، وتحول الى هزيمة. وفي تلك اللحظات الحرجة وبـينما ظـلمة الفجر ما تزال تغمر الوادي، انحاز النبي(ص) الى يمين الوادي هاتفاً:

ـ انا رسول الله هلموا اليّ؛ انا محمد بن عبد الله.

غير ان الفوضى كانت ماتزال هي الغالبة على الموقف فلم يلتفت الى رسول الله احد سوى نفر يعدّون بالاصابع؛ في طليعتهم ابن عمه علي بن ابي طالب(ع)، وعمه العباس بن عبد المطلب، واسـامة بـن زيد، وايمن بن أم ايمن، وعبد الله بن مسعود. وفي تلك اللحظات غادر المشركون مواقعهم لمطاردة المنهزمين يتقدمهم رجل يـركب جـملاً احمر ويحمل رمحاً طويلاً وبيده راية سوداء.

وأمر النبي(ص) عمه العباس ان يطلق هتافات التجمع، فدوّت في الوادي صيحات معبّرة:

ـ يا اصحاب سورة البقرة!... يا اهل بيعة الشجرة... الى اين تفرّون عن رسول الله؟!

فعلت صيحات الاستغاثة فعلها في النـفوس فـآبوا الى رشـدهم وطفقوا يعودون، ميممين وجـوههم شـطر مـصدر تـلك الصـيحات الجهورية.

وعندما تجمع ما يقارب المئة من المقاتلين، مضى رسول الله يقاتل بهم الذين كفروا؛ انهم لا ايمان لهم.

ولقد استبسل علي بن ابي طالب في القتال وكان يصد هجمات المغيرين الذين ارادوا انتهاز وحدة النبي(ص) للقضاء على صوت الاسلام الى الابد.

واقتحم النبي عن بغلته وراح يباشر القتال وسطّر في ذلك ملحمة ادهشت المسلمين انفسهم، فتوهجت في نفوسهم آيات القرآن وبشارات السماء.

حتى اذا اتضحت معالم النهار كانت ارض حنين تهتز لعنف المعركة، وتناول النبي حفنة من تراب الوادي وقذفها في وجه المشركين هاتفاً:

ـ شاهت الوجوه.

واظهر بعض الحاقدين على الاسلام كأبي سفيان شماتتهم، وهتف وهو يفرك يديه مغتبطاً والازلام في كنانته:

ـ لاتنتهي هزيمتهم دون البحر.

وتمتم آخر:

ـ الآن بطل السحر[1].

---

(١) قالها كلدة اخو صفوان بن امية من امه.

وتحرّك الحقد في آخر، فعضّ على نواجذه قائلاً:

ـ اليوم أُدرك ثأري من محمد.

وانتقد صفوان بن امية هذه المواقف الجبانة بالرغم من بقائه على الشرك حتى تلك اللحظة، وعبر عن امتعاضه من انتصار هوازن قائلاً:

ـ لأن يملكني رجل من قريش احب اليّ من ان يملكني رجل من هوازن.

كان الوقت يمضي في صالح المسلمين الذين بدأوا بالتجمع مـرّة اخرى بعد ان افاقوا من هولة الصدّمة الاولىٰ.

وشيئاً فشيئاً بدأت كفّة القتال تميل الىٰ جانبهم.

واندفع علي بن ابي طالب نحو حامل الراية فـي قـوّات هـوازن فسدّد له ضربة جبّارة فصرعته، وكان لسقوط الراية الأثر المدمّر في قوات المشركين فدبّ الوهن الى قلوبهم، وفقدوا حماسهم في القتال.

وعندما لاحظ النبي القائد(ص) فتور الهجمات المـعادية اطـلق صيحته معلناً بدء الهجوم المعاكس:

ـ الآن حمي الوطيس... شدوا عليهم.

واندفعت القوات الاسلامية ـ بـعد ان امسكت بـزمام المـبادرة ـ تمزق فلول المشركين الذين فضّلوا الفرار والنجاة باي ثمن.

افترق المنهزمون الى محورين؛ محور فرّ باتجاه «الطائف» ويتألف

من معظم قوات ثقيف، فيما اختارت هوازن وبعض القبائل الاخرى «اوطاس» و«نخلة» ملجأً لها.

وتحققت مقولة دريد الشاعر الذي قال قبل احتدام المعركة: «لايرد المنهزم شيء» وهكذا ترك المشركون نساءهم واطفالهم واموالهم تحت رحمة الجيش الاسلامي.

وقد بلغت غنائم الجيش المنتصر ارقاماً مدهشة فكانت «٦/٠٠٠» من السبي و ٢٤/٠٠٠ من الابل و٤٠/٠٠٠ شاة و ٤/٠٠٠ أوقية من الفضة.

وقد أوقف النبي عملية توزيع الغنائم بعد جمعها في وادي الجعرانة، ريثما يتم تصفية الحساب مع العدوّ المتحصّن وراء اسوار الطائف.

وكانت اسوار الطائف من المتانة بحيث صمدت في وجه الحصار كما ان المواد الغذائية كانت متوفرة لدى ثقيف بشكل يجعلها تواجه امد الحصار الطويل.

حاول الجيش الاسلامي تضييق الحصار وتقدمت الكتائب باتجاه الاسوار، ولكن مقاتلي ثقيف صبّوا عليهم وابلاً من السهام، فامر النبي بالابتعاد عن مرمىٰ السهام.

واستخدم المسلمون لاول مرة اسلحة جديدة هي «المجانيق» التي

تشبه المدفعية الى حدّما كما استخدموا «الدبابات» ايضاً وهي آليات من الخشب المصفحة بالجلود يدخل تحتها الجنود ويتقدمون باتجاه الاسوار ونقبها[١]، وقد اخفق كلا السلاحين في تحقيق تقدم ما؛ فقد صمدت الاسوار امام قصف المجانيق، كما عالج جنود ثقيف الدبابات بإلقاء كتل المعادن بعد صهرها فاحترقت، وانسحب الجنود المحتمون تحتها.

ورأى النبي(ص) بنظره الثاقب انهاء الحصار وترك مسألة الطائف للزمن، فأمر بفك الحصار والعودة الى «الجعرانة» ومكة ثم المدينة.

## في الوادي

وفيما كان النبي مشغولاً بتوزيع الغنائم، حضر وفد من هوازن يطلب من رسول الله العفو، مذكّرين بطفولته يوم كان في مضارب بني سعد لدىٰ مرضعته حليمة[٢] قائلين:

- ان في الاسر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، ولأنت خير المكفولين.

---

(١) كان صاحب الفكرة سلمان الفارسي(رض) وهو الذي اشار بحفر الخندق الذي انقذ المدينة المنورة من خطر الفناء في العام الخامس الهجري.

(٢) تنتمي حليمة السعدية الى قبيلة بني سعد بن بكر احدى قبائل هوازن.

فتأثر النبي(ص) وتدفق نبع انساني فيّاض في قلبه وقال:

ـ ابناؤكم ونساؤكم احب اليكم ام اموالكم؟

ـ بل نساؤنا وابناؤنا.

ـ ما كان لمحمد ولبني عبد المطلب فهو لكم.

ونصح النبي(ص) الوفد بالانتظار الى صلاة الظهر والتقدم بشكل رسمي وان يقولوا: انا نستشفع رسول الله الى المسلمين والمسلمين الى رسول الله في ابنائنا ونسائنا.

وانتظر الوفد موعد الصلاة؛ وكانت فرصة اخلاقية يمكن استثمارها في التخفيف من حدّة الميول المادّية، وهتف الوفد بعبارة النبي فأجاب (ص):

ـ ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم.

وهتف المهاجرون:

ـ ما كان لنا فهو لرسول الله.

وصاح الانصار:

ـ ما كان لنا فهو لرسول الله.

ولكن الاقرع بن حابس ومعه بنو تميم، وعيينه بن حصن ومعه بنو فزارة وعباس بن مرداس زعيم بني سليم قد اصرّوا على مواقفهم في الاحتفاظ بغنائمهم البشرية؛ وفي الاثناء هتف بنو سليم قائلين:

ـ بلى ماكان لنا فهو لرسول الله.

وعندها امر النبي باطلاق سراح جميع الاسرى من هوازن على ان يعوض المتمسكين بموقفهم عن كل انسان ستة من الابل. وراح النبي يغدق على الذين اسلموا حديثاً من اهل مكة بالغنائم استمالة لقلوبهم والقضاء على البقية الباقية من الاحقاد القديمة.

فوهب ابا سفيان عدوّه اللدود اربعين اوقية من الفضة ومئة من الابل فهتف وقد هزّته الاطماع:

ـ ابني يزيد ! يا رسول الله.

فقال النبي(ص) :

ـ اعطوه اربعين اوقية ومئة من الابل.

فهتف ابو سفيان مرّة اخرىٰ:

ـ ابني معاوية :

ـ اعطوه اربعين أوقية ومئة من الابل.

## لقاء مع الانصار

وقد تركت هذه الهبات الضخمة[1] في نفوس الانصار آثاراً سيئة

---

(١) يقول صفوان بن امية احد المؤلفة قلوبهم : «اعطاني رسول الله (ص) يوم حنين وانه لأبغض الناس اليّ فمازال يعطيني حتى صار احب الناس اليّ»

وعصفت بهم الهواجس من ان يفكر النبي بالعودة الى مكّة والى قومه الذين شرّدوه بالامس، فينسى مواقف الانصار وتضحياتهم في الايام الصعبة.

وتصاعدت همسات العتب بين الانصار حتى وصلت الى مسامع النبي فأمر سعد بن عبادة ان يجمع الانصار في مكان خاص.

وجاء سعد بعد حين قائلاً:

ـ قد اجتمع لك هذا الحي من الانصار.

وهنا وقف النبي(ص) يعلن مواقفه الخالدة ويفلسف لهم عـقيدته في العطاء:

ـ يامعشر الانصار مقالة بلغتني عنكم، وجدة[1] وجدتموها عليّ في انفسكم؟ ألم آتكم ضلّالاً فهداكم الله بي، وعـالة فـاغناكـم الله واعداءً فألف بين قلوبكم؟

ألا تجيبوني يامعشر الانصار؟

وانطلقت الاصوات تعلن:

ـ بماذا نجيبك يارسول الله؟ لله ورسوله المنّ والفضل.

غير ان النبي لم يكن لينسىٰ مواقفهم وتضحياتهم فقال:

ـ اما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدُّقتم: اتيتنا مُكَذّباً فصدقناك

---

(١) العتب الممزوج بالغضب.

ومخذولاً، فنصرناك، وطريداً فآويناك وعائلاً فأسكناك؛ أوجدتم يامعشر الانصار في انفسكم في لعاعة[1] من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم؟

ألا ترضون يامعشر الانصار، ان يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم؟

وأردف النبي معلنا عواطفه العميقة:

ـ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الانصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الانصار شعباً لسلكت شعب الانصار.

ثم رفع يديه الى السماء الصافية هاتفاً:

ـ اللهم ارحم الانصار... وابناء الانصار.. وابناء ابناء الانصار.

وتأثر الانصار لمنظر النبي وانفجروا بالبكاء..

البكاء الذي يغسل القلوب فتعود طاهرة نقية كما تغتسل الاشياء تحت رشاش المطر.

ولعلّ افضل مانختتم به هذه الصفحات المثيرة من التاريخ هو كلمات القرآن وهي تصوّر باسلوب خلّاب تلك اللحظات العاصفة:

ـ «لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذا اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم

---

(١) القليل المحتقر.

ولّيتم مدبرين. ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنوداً لم تروها وعذّب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين »[1].

## وقبل ان ينطوي العام

وقبل ان ينطوي العام الثامن للهجرة، وقعت بعض الحوادث منها ميلاد ابراهيم ابن النبي(ص) من زوجته مارية وتعيين عتاب بن اسيد والياً على مكّة بأمر النبي رغم كونه شاباً لم يبلغ العشرين بعد؛ الأمر الذي اثار امتعاض سادة قريش وزعمائها فأرسلوا اليه قائلين: أليس الاكبر هو الافضل؟

فردّ النبي (ص) بحزم محطماً تقاليد الجاهلية: بل الافضل هو الاكبر.

وعلى صعيد الاحداث العالمية، تم تنصيب اردشير ملكاً على الامبراطوية الفارسية وهو مايزال في السابعة من عمره خلفاً لابيه.

كما نصح بجير اخاه الشاعر كعب بن زهير الذي سبق وان هجا النبي(ص) بالقدوم عليه وطلب العفو وانهاء هواجس التشرد.

وقد استجاب الشاعر فشدّ رحاله صوب المدينة ونزل ضيفاً عند احد اصدقائه طالباً منه التوسط لدى رسول الله(ص).

---

(١) التوبة: الآيتان (٢٥ ـ ٢٦).

وقد قام كعب بمحاولة ذكية اذ غدا في اليوم التالي على المسجد وسلّم على النبي وصافحه قائلاً:

ـ ان كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً، فهل انت قابل منه ان انا جئتك به؟

فاجاب النبي :

ـ نعم.

وفي هذه اللحظة اماط كعب اللثام عن هويته وقال :

ـ انا كعب بن زهير يارسول الله.

ثم أندفع ينشده رائعته في مدح النبي(ص) والتي يقول فيها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول    متيم اثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين اذ رحلوا    الا اغن غضيض الطرف مكحول

الى ان يقول :

نبئت ان رسول الله اوعدني    والعفو عن رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذي اعطاك نافلة    القرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لاتأخذنّي بأقوال الوشاة ولم    اذنب ولو كثرت فيّ الاقاويل

واستمر كعب يردد مدائحه على النبي وثناءه على المهاجرين الى ان أتمّها.

فقال النبي(ص) تطييباً لخواطر الانصار:

ـ هلّا ذكرت الانصار بخير فانهم لذلك اهل.

فانشأ كعب على الفور يمجد تضحيات الاوس والخزرج:

من سرّه كرم الحياة فلا يزل    في مقنب من صالح الانصار
ورثوا المكارم كابراً عن كابر    ان الخيار هم بنو الاخيار
الناظرين باعين محمرّة    كالجمر غير كليلة الابصار
والبائعين نفوسهم    للموت يوم تعانق وكرار

وخلع النبي بردته والبسها اياه تكريماً له.

## تبوك

واطلّ العام التاسع من الهجرة والذي يصادف سنة (٦٣٠ ـ ٦٣١)م وقد شهد هذا العام انتصارات كبرى للاسلام، اذ اعلنت معظم القبائل العربية ولاءها للدين الجديد، فلقد اصبح الاسلام حقيقة واقعة، توجب على الجميع الاقرار بها.

ولعلّ اكبر باعث على هذا الاعتراف الرسمي العام هو مارافق غزوة تبوك من احداث وحوادث.

فقد وصلت انباء الى المدينة تفيد بحشود ضخمة يقوم بها هرقل امبراطور الروم، وتردد اصداء التحركات العسكرية في الجزيرة العربية.

لقد هزم الاسلام الوثنية في معارك حاسمة كما قصم ظهر اليهودية في هذه البقعة من العالم، وتساءل الناس عن مدى قوّة الاسلام في مواجهة الرومان والقبائل العربية المتنصّرة؛ وهكذا توجب على المسلمين الاستجابة لهذا التحدي الجديد.

ولأول مرّة استخدم الرسول(ص) اسلوب الحرب الشاملة فاعلنت في المناطق الاسلامية حالة النفير العام بالتحاق كل القادرين على حمل السلاح.

وبالرغم من قسوة الظروف آنذاك فالفصل كان حارّاً والعام عام جدب اضافة الى عجز مالي واضح في اعداد التجهيزات الحربية اللازمة، ومع كل هذا فقد تمكن النبي(ص) من تعبئة ثلاثين ألف مقاتل ولم يتخلف سوى ثلاثة نفر؛ كما استثنى النبي(ص) المنافقين لعلمه بنواياهم.

ويظهر من خلال اصرار النبي على قبول التحدي خطورة الموقف على حدود شبه الجزيرة الشمالية؛ ذلك ان هرقل كان يخطط لضربة جبارة بعد ان اقلقه مايجري في الجزيرة العربية وحدود بلاده الجنوبية وخشية من انقلاب القبائل العربية المنتصرة، ولذا قام بخطوات يفهم من ورائها نيته في القضاء على الدين الاسلامي قبل ان يستفحل امره ويتحول الى قوّة عالمية.

فحشد قوات هائلة في منطقة تبوك ثم قام بارسال قوات صغيرة الى منطقة «البلقاء» في محاولة لتحويل الانظار عن تبوك، كما قـام ايضاً بتوزيع رواتب عام كامل على جنوده، كما اغدق الاموال على القبائل العربية النصرانية لحشدها ضـد الاسـلام ومسـاعدة جـيوش الامبراطورية.

وفي ظروف بالغة القسوة تحرّك الجيش الاسلامي الجرّار صوب تبوك وتجمعت النسوة والاطفال والشيوخ فوق اسطح المنازل، والعيون تومض أملاً، والقلوب تموج بالدعاء لله ان ينصر رسوله والذين آمنوا.

ولأول مرة في تاريخ الاسلام ومعاركه الدامية لم يشارك علي بن ابي طالب في التوجه في هذة الغزوة وقد كان ذلك بأمر النبي(ص) بعد ان ساورته الشكوك في عمل تخريبي قد يقوم به المنافقون.

وقد حاول علي بن ابي طالب الالتحاق بـعد ان غـادر الجـيش الاسلامي المدينة، ولكن النبي(ص) اصرّ على بقائه، فالمدينة يلزمها رجل قويّ، يملأ فراغ القائد في الظروف الحرجة، وفي تلك اللحظات طلب النبي من ابن عمه العودة الى المدينة قائلاً له:

ـ ألا ترضى ياعلي ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه لانبي بعدي.

وعاد علي الى المدينة وعيناه تتألقان فرحاً بهذا المجد.

كان على الجيش الاسلامي ان يقطع صحراء مترامية تمتد الى ستمئة كيلومتر وفي قيظ شديد يجعل من الماء انفس الاشياء على الاطلاق.

لقد وضعت تبوك المجتمع الاسلامي في اكبر امتحان، وظهرت معادن الرجال كما هي، وفضحت المنافقين بشكل سافر حتى باتوا يحترقون تحت اشعة الحقائق المرّة.

لقد سادت المجتمع الاسلامي حركة من التضامن المدهشة خاصة في دعم المجهود الحربي اذ قدمت النسوة حليهن الذهبية لدعم الجيش الاسلامي، فيما راح المنافقون يطلقون الشائعات، ويهولون من خطر الرومان، وفي احسن الاحوال كانوا يطلبون الانتظار لحين جني الثمار خاصّة وقد اطل موسم القطاف.

## المجد للاسلام

وصل الجيش الاسلامي منطقة تبوك وكانت المفاجأة الكبرىٰ انها كانت مقفرة، لقد فضل هرقل امبراطور الرومان الانسحاب، مؤثراً السلامة ومتهيباً ضخامة الجيش الاسلامي وروحه المعنوية ولياقته العالية وقدرته على قطع الصحاري الشاسعة في فتره وجيزة نسبياً.

وأمر النبي(ص) بالمرابطة في تبوك مدّة عشرين يوماً متحدياً اكبر

امبراطورية في العالم آنـذاك، وبـذلك تـم سـحق الغـرور الرومـاني وزعزعة ماتبقى من هيبتهم في النفوس.

وخلال تلك الفترة كانت السـرايـا الاسـلامية تـجوب المـناطق والتخوم لبسط النفوذ الاسلامي، وارغام بعض الممالك الصغيرة على الاعتراف بالدولة الاسلامية ومجد الاسلام.

فقد تم ابرام معاهدة سلام مع «أيلة» حيث حضر زعيمها يـوحنا بنفسه لتوقيع المعاهدة التي جاء فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه امنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن رؤبا وأهل ايلة سفنهم وسيّارتهم في البرّ والبحر ومن كان معهم من اهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر...»

كما ابرم النبي(ص) معاهدة سلام اخرى مع بلدتين في البلقاء[١] هما اذرح والجرباء.

وقد اسفرت عملية تبوك عن نتيجة واحدة كبرى، هي قيام كيان اسلامي وميلاد حضارة انسانية جديدة في العالم.

---

(١) بالقرب من العاصمة الاردنية عمّان.

وفور عودة الجيش الاسلامي الظافر الى المدينة، تهافتت القبائل العربية الى الأرض الطيبة في يـثرب لتـعلن انـضواءهـا تـحت لواء الاسلام، وقد بلغ زخم الوفود العربية ان سمي العام التاسع للهجرة بعام الوفود؛ ويبقى وفد نجران الاستثناء الوحيد لوفود القبائل العربية التي اعلنت انتهاء عهد الوثنية، والايمان بالله الواحد الأحد.

اما وفد نجران فقد جاء يجادل النبي في مسـائل فكـرية عـميقة خاصّة في طبيعة المسيح، وقد اوضح النبي حقائق السماء عبر آيات القرآن الحكيم في قوله تعالىٰ:

ـ « ما المسيح ابن مريم إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل وامّه صديقة كانا يأكلان الطعام »[1].

وعندما استنكر الوفد ذلك محتجاً بعدم وجود أب للـمسيح، تـلا النبي(ص) الآية الكريمة:

ـ «ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ».

ويبدو ان الوفد لم يكن مستعداً للاذعان للحقائق فـهبط الوحـي

(١) البقرة: ١٢٠.

بالآية الكريمة:

ـ «فمن حاجّك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناكم ونساءنا ونسائكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين»[1].

وانسحب الوفد في اللحظة الاخيرة عندما شاهد موكباً عجيباً حيث خرج النبي يمسك بسبطيه الحسين والحسين وخلفه علي(ع) صهره ثم فاطمة الزهراء(ع) ابنته وقد بدا الفضاء مشحوناً بالخطر والسماء على وشك ان تنزل لعنتها على الكاذبين.

وشهد هذا العام انتصارات الاسلام دون حروب، فقد اعلن باذان بن ساسان اعتناقه لدين الله الحق بالرغم من التهديدات الفارسية، فأمّره النبي على مملكته واضاف اليه مقاطعات يمنية اخرى كانت هي الاخرى قد انضوت تحت لواء الاسلام.

كما وشهد العام فرض الزكاة على الاموال وتعيين الجباة لهذه الضريبة الاسلامية في محاولة لخلق حالة من التوازن في الثروة بين افراد المجتمع الاسلامي ومكافحة الفقر.

ومن حوادث هذا العام قيام النبي باحراق مسجد «ضرار» الذي

---

(١) آل عمران: ٦١.

بناه المنافقون للتغطية على اجتماعاتهم وتآمرهم ضد الاسلام[1].

واخيراً نزول سورة «براءة» التي أعلنت وبشكل رسمي زوال الوثنية وحدّدت للمشركين مدّة اربعة اشهر لاعلان موقفهم من الاسلام.

وعلى صعيد الاحداث العالمية شهد العام التاسع الهجري مصرع اردشير الملك الصبي لامبراطوية فارس حيث تم اغتياله في انقلاب عسكري نفذّه القائد «شهربراز»[2].

## الحج الاكبر

في شهر ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة اعلن النبي (ص) عزمه على حج بيت الله الحرام، وحملت نسائم الصحراء انباء الفرح، فراحت القبائل العربية تنثال الى المدينة لتنضوي تحت لواء آخر الانبياء في التاريخ.

فتدفق عشرات الآلاف تاركين قراهم ومدنهم ومضارب قبائلهم.

وفي الخامس والعشرين من الشهر نفسه تحركت القوافل باتجاه

---

(١) توفي عبد الله بن سلول زعيم النفاق فتنفس المسلمون الصعداء.

(٢) لقي مصرعه هو الآخر اثر تمرّد الجيش حيث تم تنصيب «بوران» اخت الملك القتيل «اردشير».

مكة مهوى الافئدة، وشهدت الصحراء لأول مرة تجمّعات بشرية ضخمة بلغت المئة ألف انسان تطوي المسافات وهي تسير الهوينىٰ صوب بيت بناه ابراهيم واسماعيل.

وفي الخامس من ذي الحجة الحرام دخل النبي مكة من باب السلام، وطاف حول البيت العتيق سبعة اشواط ثم انطلق الى جبلي الصفا والمروة، وهو يتمتم بآي القرآن الكريم: «ان الصفا والمروة من شعائر الله »، فسعى بين الجبلين، في حركة تذكر بام اسماعيل يوم كانت تبحث عن قطرة ماء لوليدها اسماعيل.

وتسلق جبل الصفا فأطل على الكعبة العظمى وهتف معلناً انتهاء الوثنية:

ـ لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير... لا إله إلا الله انجز وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده.

وفي عرفات وقف النبي خطيباً وراح يبين للمسلمين ثقافة الاسلام ومبشراً بعهد السلام:

ـ ايها الناس اسمعوا مني أبيّن لكم فاني لا ادري لعلّي لا القاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.

ان دماءكم واموالكم حرام عليكم ان تلقوا ربّكم كحرمة يومكم

هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا.

ثم اعلن الغاء النظرة العنصرية وتكريم الانسان.

ـ ايها الناس ان ربّكم واحد وان أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، ان اكرمكم عند الله اتقاكم، ليس لعربي على عجميّ فضل إلا بالتقوى.

ثم راح يؤسس لعهد جديد يسوده السلام والمحبة والوئام.

ـ من كانت عنده امانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها.

وان ربا الجاهلية موضوع، وان أول ربا أبدأ به هو ربا عمّي العباس ابن عبد المطلب، لكم رؤوس اموالكم لاتظلمون ولاتُظلمون.

وان دماء الجاهلية موضوعة، وان اول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة ابن الحرث بن عبد المطلب(١).

وكان يختم بياناته قائلاً:

ـ ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

ولم ينس النبي ان يوضح ولو بشكل عام حقيقة كبرى هي الطريق الذيي يتعين على المسلمين سلوكه بعد غياب آخر النبوّات في التاريخ:

ـ ايها الناس انما المؤمنون اخوة ولايحلّ لأمرئ مال اخيه إلّا عن

---

(١) ورد في السير ان قبيلة هذيل كانت قد اعتدت عليه وقتلته.

طيب نفسه فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم اعناق بعض فإني قد تركت فيكم ما ان اخذتم به لن تـضلوا بـعدي أبـداً : كـتاب الله وعترتي أهل بيتي.

## البلاغ المبين

انطوت أيام الحج الاكبر وآن لقوافل الحجيج ان ترجع الى ديارها، وراح اهل مكة يرقبون باعجاب وأمل، الجموع وهي تـغادر الارض المقدّسة حيث هبط جبريل يحمل آخر رسالات السماء.

وغادر رسول الله(ص) مكة ونفسه مطمئنة لانتشار الاسلام الذي اضحى في مدّة وجيزة الدين الأول في منطقة واسعة من العالم.

وصلت القوافل منطقة الجحفة حيث مفترق الطرق، كانت الشمس تتوسط السماء وتصبّ لهـيبها عـلى رمـال الصـحراء فـتتوقد ذرّات الرمال.

وفي تلك البقعة الملتهبة من دنيا الله هبط جبريل يـحمل البـلاغ الاخير:

ـ «يا ايها الرسول بلِّغ ما أُنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ».

ويبدو من خلال لهجة الخطاب القرآني التي اتخذت شكل الانذار

ان هناك امراً خطيراً يتوجب على النبي ابلاغه الى الامة التي ولدت قبل اعوام.

فوجئت قوافل الحجيج بدعوة النبي بالتوقف في ارض جرداء قاحلة، فلا شجرة يستظل بها المسافر، ولا نبع يرتوي منه الظامئ؛ وطافت علامات تعجب واستفهام عن بواعث الأمر النبوي.

لا يستطيع المرء ان ينفي هواجس الرسول(ص) في مصير الرسالة الاسلامية بعد رحيله، خاصة وانه بات يشعر بأن ساعة الرحيل قد أزفت ولم يبق له في الدنيا سوى مشوار قصير، وقد آن لآخر الانبياء ان يغمض عينيه ويغفو بسلام.

تطلّع المسلمون الى النبي (ص) وهو يرتقي دوحات اعدّها له بعض اصحابه، ووقف يتطلع الى عشرات الألوف من الذين آمنوا به واعتنقوا رسالته، وعيناه تحدّقان في الآفاق البعيدة، الى حيث الغد الذي ينطوي على اسرار وحوادث لا يعلمها إلا الله.

وانسابت كلمات الرسول هادئة مؤثرة:

ـ كأني قد دعيت فأجبت.. واني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي اهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض.

وكان علي بن ابي طالب قريباً منه، فاستدعاه وامسك بيده وقدّمه

الى العالم بأسره قائلاً:

ـ ألست اولى المؤمنين من انفسهم، وازواجي امهاتهم.

فانطلقت الصيحات مؤيدة من هنا وهناك:

ـ بلى يارسول الله.

فهتف النبي وقد رفع يد علي عالياً كأنه يخاطب التاريخ والاجيال

ـ من كنت مولاه فهذا علي مولاه ، اللهم وال من ولاه ، وعاد من عاداه.

وادّى الرسول رسالته، وهبط جبريل يعلن بشارة السماء:

ـ «اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً».

وتفجّر نبع من الفرح في تلك الصحراء الملتهبة، واهتزّ حسّان بن ثابت طرباً وانطلق يردّد ممجداً تلك اللحظات السماوية:

يناديهم يوم الغدير نبيهم ... بخمّ وأسمِع بالنبي منادياً
وقال فمن مولاكمُ ووليكمْ ... فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا
الهك مولانا وانت ولينا ... ولن تجد منا لك اليوم عاصياً
فقال له : قم ياعلي فانني ... رضيتك من بعدي اماماً وهادياً
فمن كنت مولاه فهذا وليه ... فكونوا له انصار صدق مواليا
هناك دعا اللهم وال وليه ... وكن للذي عادى علياً معاديا

وتمتم النبي وعيناه تتألقان فرحاً:

ـ لاتزال ياحسّان مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك. ونهض الصحابة يحييون عليّ ويهنئونه قائلين:

ـ بخ بخ لك ياعلي اصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة

وكان يوم الثامن عشر من ذي الجة الحرام يوم عيد وفرح، فقد كمل الدين وتمّت النعمة.

## اشعة الغروب

عاد النبي(ص) الى المدينة وقد اطمأنت نفسه العظيمة لانتشار الاسلام في شبه الجزيرة العربية،وراح يتطلع الى الآفاق البعيدة، الى حيث ترزح الامم تحت نير الظلم والقهر والعبودية. واذا كان هناك مصدر للقلق فهو في حدود الجزيرة الشمالية حيث جيوش هرقل، لاتنفك تنظر الى الجنوب وتنتظر الفرص؛ امّا فارس فقد بدأت تضمحلّ من الداخل حيث الصراع من اجل العرش على اشده[١].

(١) اقدم شيرويه وهو ابن كسرى الثاني (ابرويز) على خلع ابيه من العرش وجمع اخوته وأبناءهم وقام بتصفيتهم جميعاً ولم ينج من المذبحة سوى «يزدجرد» بن شهريار، وقد هزم شيرويه امام الرومان في معركة نينوى سنة ٦٢٧م ومات بالطاعون بعد عامين، فخلفه على العرش ابنه الصغير اردشير، وكان عمره آنذاك سبعة اعوام ولكنه مالبث ان لقي مصرعه على يد احد القادة.

وفي تلك الايام ظهر الاسود العنسي وهو كاهن مشعوذ في اليمن فانتهز وفاة الوالي الفارسي المسلم باذان واعلن النبوّة، ولم يولهِ النبي(ص) اهتماماً يذكر؛ لعلمه بتفاهته. ومضى النبي يعبئ قواته تحت قيادة اسامة بن زيد الشهيد، ومن بواعث اصرار النبي على انفاذ جيش اسامة رغم تدهور صحته واضطراره الى ملازمة الفراش ان الدولة الرومانية قد بدأت حملة واسعة لمطاردة رعاياها من الذين اعتنقوا الاسلام وفي طليعتهم والي معان في الشام فروة بن عمرو الجذامي الذي سبق ان بعث برسالة الى النبي يعلن فيها اعتناقه الاسلام؛ فقد شعر الرومان بالغضب وجندوا حملة عسكرية فالقي القبض عليه والقي في احد سجونهم بفلسطين وسرعان ما حوكم بالاعدام ونفذ الحكم صلباً.

وكانت اكبر مشكلة واجهها النبي(ص) في انفاذ هذا الجيش هو تذمر بعض الصحابة من تحمل قيادة اسامة الذي كان شاباً لم يتجاوز العشرين بعد، ومن المؤسف جداً ان عقدة الجاهلية ماتزال فاعلة في النفوس والتي ترى الاكبر هو الافضل دائماً، وقد طفت هذه العقد فوق السطح منذ تعيين عتاب ابن اسيد والياً على مكة بعد تحريرها من براثن الوثنية.

وتدهورت صحة الرسول(ص) حتى بات يُخشىٰ عليه، وبالرغم

من كل ذلك ازداد اصراره على تجريد الحملة العسكرية بقيادة اسامة، وهكذا تحرك الجيش الاسلامي وغادر المدينة، وكلمات النبي ماتزال تدوّي في ذهن القائد الشاب، فمهمته ان يوطئ الخيل تخوم البلقاء وارض روم من ارض فلسطين على مقربة من مؤتة، حيث استشهد والده زيد، وان يتم كل ذلك بسرعة وعلى طريقة الحرب الخاطفة.

وواجه اسامة صعوبة شديدة في تذليل العقبات التي واجهته خاصّة وقد اعلن بعض وجوه الصحابة استياءهم، وهكذا عسكر الجيش في منطقة الجرف قريباً من المدينة المنورة؛ ريثما ينجلي الموقف.

ومن المؤكد ان اصرار النبي على الحملة العسكرية مع علمه بدنو اجله، وحشد جلّة كبار الصحابة تحت لواء اسامة واستثناء علي بن ابي طالب يشير الى شعور النبي(ص) بان هناك مايدور في الخفاء؛ ومن هنا حاول النبي افراغ المدينة من التيارات والتكتلات التي باتت تعمل بخفاء من اجل الاستيلاء على الخلافة بعد غياب النبي(ص).

لهذا اراد الرسول(ص) تمهيد الامور الى الوصي من بعده الذي تم تنصيبه من قبل السماء في آخر البلاغات الالهية في منطقة «غدير خم» في طريق العودة من حجة الوداع.

وفي ضوء هذه النظرية يمكن تقديم تفسيرات مقنعة لكل الحوادث التي رافقت تدهور صحة النبي(ص) وما اعقب ذلك حوادث بعد وفاته(ص).

## اذا الشمس كورت

اشرقت شمس يوم الاثنين حزينة كعين تنتحب. لقد اقتربت الساعة، وآن لآخر الانبياء ان يرحل... ان يودّع الدنيا الفانية الى عوالم مفعمة بالسلام.

هبّت فاطمة الزهراء(ع) من نومها مذعورة.. لقد افزعتها الرؤيا... كانت قد رأت مصحفاً يفلت من بين يديها ويطير في السماء، ورأت فاطمة نفسها تطير وراءه... وكان القرآن ينادي:

ـ هلمي اليّ .... هلمي الىٰ السماء. ونظرت فاطمة وراءها فرأت الارض زيتونة مشحونة بالبرق والرعود.

وجاءت الى ابيها تسعى؛ قالت:

ـ يا أبتي اني رأيت قرآناً يسقط من يدي.

ـ قال الذي عنده علم الكتاب:

ـ يافاطمة يوشك ان ادعى فأُجيب.. وقد عرض عليّ جبريل القرآن هذا العام مرّتين.

تجمعت في عينيها الدموع... ضرب الحزن اطنابه في القلب الكسير.. ودق اوتاد خيامه.

قال الأب ليسرّي عن ابنته.. عن ذكراه من خديجة:

ـ لاتحزني.. انت اول أهل بيتي لحوقاً بي.

اشرقت شمس الأمل... وجدت لها طريقاً خلال الغيوم فعادت البسمة تموج فوق وجه ازهر.

آه منك «يايوم الاثنين»[1]، لقد رحل زمن السلام، كان علي يعتنق الرجل الذي ربّاه صغيراً وعلّمه كبيراً وفتح له أبواب الملكوت.. والنبي يشدّ على يد فتى شرى روحه لله والرسول... والله وحده الذي يراقب الاعماق.

بدا علي كالمذهول، ودّ لو يقيه بروحه، فالحياة مريرة دون محمد، وما احلى الموت معه او دونه.

ومرّت اللحظات متسارعة عنيفة كدقات قلب أو هنته الحمّىٰ...

---

(١) عبارة ترددت عبر التاريخ على السنة الكثيرين اذ يعتقد أهل البيت(ع) ان محنتهم بدأت يوم الاثنين وهو اليوم الذي صادف وفاة الرسول(ص)، ففي خطاب لزينب بنت علي(ع) بعد مصرع اخيها الحسين في مذبحة كربلاء سنة ٦١ هـ جاء فيه: بأبي من اضحى معسكره يوم الاثنين نهباً».

وهتفت جارية لابي الحسن علي الهادي الامام العاشر من ائمة اهل البيت إثر وفاته مسموماً على يد المعتز الخليفة العباسي سنة ٢٥٤هـ، هتفت وهي تنتحب: ماذا لقينا منك يا يوم الاثنين!

النبي ينوء بنفسه، يصغي الى ملائكة الرحمة ولكن اهل الأرض عن السمع لمحجوبون.. لم يسمعوا شيئاً سوى كلمات هي آخر ماحفظته الارض من ميراث السماء:

- بل الرفيق الاعلىٰ.

وانطلق محمد نحو الله .. يعبر السماوات مخلِّفاً جسده بين ذراعي علي... وقد هبّت العاصفة.